ZAINAB HIFNI

SHORT STORIES



زينب حفني

# نساء عند خط الاستواء



إلى حواء . .

المتهمة الوحيدة في قضية إخراج

آدم من الجنة

إليها . .

أهدي حروفي الثائرة عسى أن تجد . .

فيها بعض العزاء!!

# إيقاعات أنثوية محرّمة

استيقظت مبكرًا على سخونة جسده الملاصق لجسدي ، تناهى إلى سمعي صوت المطر المنهمر بالخارج ، لم يتوقف عن التساقط منذ ليلة البارحة ، ابتسمت ، شعرت بسعادة تغمرني من أحداث الأمس ، لم أتوقع الإقدام على مثل هذا الفعل . أزحت ذراعه المطوقة خصري برفق ، نظرت إلى قسماته النائمة ، حاولت إيقاظه بالعبث في شعر رأسه ، الداكن اللون . نظر صوبي من تحت جفني عينيه المثقلتين ، ثم أدار وجهه عني ، مد ذراعه تجاه حقيبة صغيرة موضوعة على المنضدة بجواره ، فتحها ، غاص بيده فيها ، أخرج حفنة من الدولارات ، وضعها بجانبي ، عاد للنوم مرة أخرى ، شعرت بسخونة تسري في شراييني ، إحساس بالخزي والعار يتملكني ، كأنني أتعرّى من ملابسي لأول مرة في حياتي . لكزته في خاصرته قائلة بنبرة مضطربة «ما هذا!!» أجابني بصوت ناعس «حقك

خذيه . . دعيني أكمل نومي . .» دقات قلبي تلاحقت ، أحسست برغبة في التقيؤ ، البكاء ، الصراخ ، الهروب من هذا المكان الذي غدا مقززا بالنسبة لي . تمنيت لو واتتني الشجاعة لصفعه على وجهه ، رميه بأقذع الشتائم ، تحاملتُ على نفسي ، قذفت بملء يدي رزمة النقود ، تبعثرت في أرضية الغرفة ، ارتديت ملابسي على عجل ، متحاشية النظر صوب الرجل الذي عاد يغطُّ في النوم . صفقت الباب خلفي بعنف ، مرددة بوجع «لست مومسًا . . لست مومسًا» .

خرجتُ مُهرولة تجاه المصعد ، بهو الفندق يعمه الهدوء ، مازال نزلاؤه نيامًا ، وقفت هنيهة عند بوابة الفندق ، لفحتني نسمات الصباح الباردة ، لاحظت أن المطر قد توقف عن التساقط ، آثرتُ السير على قدميَّ ، لأتحرر من كابوس الكآبة الجاثم على صدري . أعشق باريس في هذا الوقت من العام ، أشبهها بالمرأة اللعوب التي ترتدي أجمل حليها لتغري القادم إليها . بدا نهر السين منسابا ، زاد من تألقه انعكاس ضوء الشمس الذي ما زال يرتدي حلة النوم . من بعيد كانت تتراقص السفن السياحية على جانبي النهر ، محدثا التحام قعرها بالماء ، نغمًا خافتًا كهمس العشاق . تذكرتُ ليلة الأمس ، التقيت به على ظهر إحدى هذه السفن ، لفتت نظري أناقته ، وسامته ، فحولته التي كانت تشع في بؤبؤي عينيه ، سيطر عليَّ إحساس لحظتها بأني أعرفه من زمن بعيد ، نظرات إعجابي شجعته على الجلوس بقربي ، لم أحاول الابتعاد ، ازددت التصاقًا به ، سألني :

«قادمة للتنزه، أليس كذلك؟» . أومأت برأسي إيجابًا قائلة : «أعشق باريس في فصل الخريف، أراها تتحرر من جمودها، وكبريائها العتيق، تصبح امرأة تلقائية في تصرفاتها، تنساق خلف رغباتها بلا تصنّع» . قاطعني قائلا بحبال صوتية رخيمة : «ما رأيك في تكملة الليلة معي؟ أتمنى أن تكوني لساعات باريسية الهوى!!» لم أجبه، تأملته بملء عينيَّ، ابتسمت له ابتسامة ذات مغزى، كانت في أعماقي رغبة لعصيان كل قواعد المحظورات في أعماقي .

لسعة برودة اقتحمت مساحات جسدي، أيقظتني من غيبوبة تأملاتي، أعادتني لحاضري، دمعة حاولت التملّص عبر مقلتيَّ، داريتُ انفعالات وجهي خلف نظارتي الشمسية، انتابتني حالة من جلد الذات، تذكرت ليلة الأمس . . كيف واتتني الجرأة على إزاحة الستار عن هذا الجسد، لشخص لا يربطني به عقد زواج!! هراء . . أعرف كثيرات يخنَّ أزواجهنَّ، لهنَّ علاقات خاصة، يبحثن عن متعهنَّ خارج أسوار الزوجية، يرفضن الاعتراف والخضوع لعقد الملكية . تبًا للرجل، إن أعطته المرأة ازدراها بعد أن تُصيبه التخمة منها، وإن ضنّت عليه اتهمها بالرجعية والتخلف، تُراني امرأة مبتذلة لتفكيري هذا!!! منظر النقود يلوح في ذهني، يتملكني الغيظ والحنق، صوت أمي يخترق مسامعي، يحضرني عبر مسافات الزمن «فاطمة ادخلي للبيت . لا تدعي أحدًا يرى ساقيك . أصبحت شابة . دلفت إلى عالم الأنوثة» عندما كنت أسألها : «ماذا تعني كلمة أنوثة!!»

كانت تنهرني «ما زلتِ صغيرة . غدا تكبرين وتفهمين» . لمحتني يومًا أقف في شرفة المنزل برداء يظهر جيدي وزندي يديَّ ، ضربتني ضربًا مبرحًا ، هددتني إن كررت هذا الفعل ستطفىء أعواد الكبريت المشتعلة في جلدي «جسدك هذا لا يجب أن يراه سوى الرجل الذي سترتبطين به في المستقبل» . «ما معنى الزواج يا أمي؟» . تصرخ في وجهي «أنتِ لست مثل أخواتك اللاتي يتقبلن تعليماتي بلا مناقشة» . لم تحاول إشباع نهم فضولي ، بل إنها دون أن تقصد أثارت بدواخلي زوابع من الرهبة تجاه جسدي ، ورسمت في فكري علامات استفهام كبرى .

أول مرة التقيت بزوجي كان في حفل مختلط ، ذهبت دون علم أهلي ، تحفّظت في الحديث معه ، توجسي منه طغى على إعجابي به ، نجح بيسر في إيقاعي بأساليبه المحترفة ، أحببته بعنف ، من أول خلوة لنا سلمته نفسي ، اخترقت العالم المجهول الذي حذرتني دومًا أمي من الاقتراب منه ، تذوقت المحظور بشغف بالغ ، استمرت علاقتنا ثلاث سنوات ، تقدّم بعدها لخطبتي بعد إلحاح شديد مني ، طلقني بعد شهرين من زواجنا . في البداية لم أصدق أن تنتهي قصة حبنا بهذه النهاية المفجعة ، شكّه كاد يدمرني ، في إحدى مرات شجارنا سألته معاتبة «لماذا تُحيطني بهذا الكم من الشك والريبة؟» أجابني باستخفاف «كيف أثق بامرأة وهبتني جسدها قبل أن أتزوجها!!» . هربت من جحيم شكه ، قررت نسيان تجربتي الأليمة ، وضعتُ

قضبانا قاسية على مشاعري ، كنتُ بحاجة إلى هدنة مع ذاتي ، حتىً كانت هذه الرحلة التي أيقظت حواسي النائمة ، أتيت باريس للترويح عن نفسي ، عندما التقيتُ بهذا الرجل ، لم تردعني وصايا أمي ، وتهكمات مطلقي في معاودة تذوّق طعم التجربة من جديد .

الطقس ازداد برودة ، قطرات المطر عادت للتساقط كالسيل العارم ، التصق ردائي المبلل بجسدي ، أخذتُ ارتجف ، أسناني تصطك ، تذكرت أنني تركت مظلتي بالفندق ، لعنت تهوري الذي أوصلني إلى هذا الوضع ، تلفّت يمنة ويسرة آملة العثور على سيارة أجرة ، توقفت سيارة عابرة بجواري ، لاح لي شاب وسيم بداخلها ، مد رأسه من النافذة ، عرض باسما إيصالي ، تجسّدت أمامي أحداث ليلة الأمس الحمراء ، مرّت تفاصيلها في فكري ، السهرة الماجنة التي امتدت للفجر ، صدى فحيح نشوتي التي رويتها بوحشية ، عينا الرجل النهمتان اللتان نهشتا مفاتن جسدي طوال ساعات الليل ، حفنة الدولارات التي ألقاها بجواري ، ألفيتُ نفسي أصيح بلغتي العربية ، في صاحب السيارة : «لا أريد الركوب . أغرب عن وجهي أيها الوغد .» وتحركت من مكاني لاهثة ، وسط ملامحه المشوبة بالدهشة والاستغراب .

***

# هـل أمـــارس جنوني ؟؟

- آلو . . الأستاذ علي؟؟

- نعم . . أنا هو . . من المتحدث؟؟

- أنا من المعجبات جدًا بمؤلفاتك ، وآرائك التي تطرحها من خلال عامودك . . أنا أعتبرك مثلي الأعلى في الحياة .

- أشكرك .

- أعلم أن مشاغلك كثيرة ، لكني أرغب في إطلاعك على نتاجي الأدبي . أنا كاتبة ما زالت تخطُّ بداياتها .

- بكل سرور . سأنتظر نتاجك ، وأعدك بقراءته قراءة متأنية ، وإبداء رأيي بصراحة .

حيّاها ، وأقفل الخط . شعور بالغبطة تملّكها ، لم تصدق نفسها ، أنها كانت تتحدث مع علي الأمير ، من أشهر الأدباء ، وأغزرهم نتاجًا . بالنسبة لها يُعدُّ أسطورة ، علامة بارزة في تنمية حسها

الأدبي . أخذت تدور في أرجاء البيت وهي تُدندن بنبرة فرحة ، ضامة أحد كتبه لصدرها ، لقد عاشت سنوات مراهقتها بين دفات كتبه ، جميعها قرأتها ، تابعت مقابلاته الصحفية ، طالعت مقالاته الساخنة ، لم يفتها أي مما سطّره النقاد عن نتاجه الأدبي . سنوات طويلة وهي تحلم بهذا الرجل ، كيف يأكل؟ متى ينام؟ أين يكتب؟ عرفت تاريخه ، ماضيه المشرّف ، آراءه الجريئة ، إخلاصه لقضاياه ، السنوات التي أمضاها في السجن نتيجة مواقفه الجريئة ، حياته التي سخرها لتحقيق أهداف نبيلة لمجتمعه العربي .

ظلت أيامًا تدور في فلك نفسها ، التفكير يعتصرها من كل جانب ، متسائلة في قرارة نفسها «هل سيعجبه قلمي!! هل ستنال قصصي استحسانه!!» . شعوران حاصراها ممزوجان بالإعجاب به ، وبالرهبة من شخصيته ، مرّ أكثر من أسبوعين ، جمعت شتات شجاعتها ، هربت من سياج جبنها ، ضغطت الأزرار على رقم هاتفه ، تسرّب إليها صوته رخيماً ، رجولياً ، هادىء النبرة ، ما إن سمع صوتها حتى حيّاها بسرور .

سألته على استحياء : «هل اطّلعت على نتاجي؟؟»

«بالطبع . أستطيع بلا مجاملة القول بأنك كاتبة جيدة . إنني أتنبأ لك بمستقبل زاهر في عالم الإبداع» .

أجابت بنبرة تمتلئ حبورا «هل ستساعدني للالتقاء بالقراء ، من خلال تزكيتي لدى إحدى المطبوعات المعروفة؟؟» .

«هذا حديث لا ينفع الخوض فيه عبر الهاتف . .ما رأيك في قبول دعوتي لفنجان من القهوة؟» .

ارتبكت ، لجمها طلبه ، سهم من التوتر أصابها في أعماقها ، لم تجبه ، صمت سيطر على كل منهما . بتر الصمت بسؤاله لها «هل وافقت على اقتراحي؟ أم تُفضلي إرجائه بعض الوقت؟» .

أجابته بصوت متقطّع «أنا واثقة فيك ، لكنّي متوجسة بعض الشيء . أنت تعرف بأننا نعيش في مجتمع محافظ لا يرحم» .

«أعرف مكانًا جميلاً على البحر ، لا يرتاده إلا عدد قليل من الناس . إنها فرصة سانحة للنقاش ، خاصة أن جو جدة هذه الأيام ربيعي ، لا رطوبة فيه ، مما يُشجع على الالتقاء» .

أعلنت موافقتها ، أقفلت الخط ، شعرت بسوط من اللوم يلهب تفكيرها ، صهد من التقريع يربض في أعماقها «كيف وافقته على طلبه المجنون؟» . نظرت إلى ملامحها في المرآة ، كانت تعلوه صُفرة غريبة ، عضلات وجهها متقلصة ، يداها ترتجفان ، قلبها يخفق بشدة ، تساءلت في نفسها «أكلّ هذا من أجل فنجان قهوة؟! لا ، السبب أعمق من هذا . أنا معجبة بشخصيته ، مبهورة بثقافته . هل أنا خائفة من الوقوع في حبه!! لكنه رجل متزوج ، ولديه أبناء ، بالإضافة إلى أن عمره يتجاوز ضعف عمري!!» . طردت الهواجس من أفكارها ، حاولت التعامل مع الأمور ببساطة ، وإقناع نفسها أن الصلة بينهما لا يجب أن تتجاوز علاقة أديب بكاتبة واعدة .

عندما دلفت داخل المقهى ، رأته جالسًا في ركن منزو ، منهمكا في قراءة إحدى المطبوعات ، عرفته من صوره المنشورة دومًا في الصحف والمجلات ، حيّته ، جلست ، طلب منها رفع وشاحها ليرى وجهها ، تلفتت يمنة ويسرة ، أزاحته بعد أن تأكدت من خلو المكان تقريبًا ، إلا من طاولات قليلة متفرقة . نظر إليها مبهورًا «كم أنت جميلة!!» . علت حمرة الخجل وجنتيها ، أرخت أهدابها ، قدّم لها كتابه الأخير بعد أن سطّر عليه عبارة إهداء«إلى من تسرّبت روحها لنفسي لحظة رأيتها» . ابتسمت لكلماته ، وضعت الكتاب بجانبها ، أخذ يُحدق فيها بجراءة أكثر ، اختلست النظر إليه ، لاحظت شعيرات فضيّة في أطراف فوديه تُطل من غترته ، شواربه السوداء تخللتها أيضًا بعض الشعيرات البيضاء . بدا في الحقيقة أكبر سنًا من صوره المنشورة ، وقاره ، ابتسامته الساحرة ، أضفتا على ملامحه شعاعًا من الجاذبية الغامضة ، مما قد يدفع الكثير من النساء للجري خلفه . لاحظت أنه ما زال يصب عليها نظرات الإعجاب ، زادتها ثقة في نفسها .

سألته بلهفة : «هل ستساعدني على الولوج لعالم الأدب؟» .

أجابها بثقة «أعدك أن أقف بجانبك حتى تصبحي كاتبة مشهورة . هذا الجمال يستحق أن يتعب الإنسان من أجله» .

رفعت حاجبيها قائلة بانفعال تلقائي «لا أريدك أن تساعدني لأني جميلة . المهم أن تكون مقتنعًا فعلاً بموهبتي الأدبية» .

«سيدتي . . لماذا تأخذين الأمور على هذا المحمل من الجد!! ألا تعرفين أن قضيتي الأولى في الحياة المرأة والحب!!» .

حدجته باستغراب قائلة «كنت أعتقد أن قضيتك الأساسية حرية الإنسان ، والتزامه تجاه قضاياه . ألم تكن دومًا تدعو لهذا؟!» .

ضحك ضحكة صاخبة ، اخترقت طبقاتها غلاف قلبها ، غرست فيه خنجرًا من الصدمة في شخصه ، أحسّت كأن صرحًا عظيمًا تهدّمت أعمدته في زوايا نفسها .

«أنت خيالية . ولكنها على أية حال صفة مطلوبة في الأديب . سأسدي لك بنصيحة . حاولي دومًا الفصل بين واقع المجتمع ، وبين نفسك . الحياة أجمل ما فيها ممارسة الجنون . مجيئك للقائي فيه شيء من الجنون ، لكن ما زال عليك ممارسة الجنون نفسه» .

سألته باستخفاف «وكيف ذلك؟!» .

«بالخروج من دائرة الواقع . ممارسة أفعال يرفضها المنطق والعقل . . أتدرين ما عيب قصصك!! أنها جامدة ، تنقصها حرارة التفاعل مع تجربة حية ، تجريدها من القيود الاجتماعية ، وأغلال الكبت والحرمان» .

«أتريد إقناعي أن كل الإبداعات الخالدة ، كانت نتيجة تجارب مجنونة؟!» .

«معظمها ، خاصة الإبداعات العالمية . لقد نجح الغربيون في القفز فوق سياج التقاليد ، والعادات البالية . ثاروا على كل شيء في سبيل

تذوق الحرية» .

«لكن الحرية ليست سيفًا نرفعه في وجه قيمنا ومبادئنا . أداة نذبح بها معتقداتنا . الحرية في رأيي هي تمسكنا بقضايا تحترم إنسانيتنا» .

«أتعرفين . لقد اكتشفت أنك لست أديبة فقط ، بل وفيلسوفة أيضًا . صغيرتي من الواضح أنك لم تتذوقي شيئًا من متع الحياة . حرري نفسك من سجن العيب والحرام . اجعليني الأداة التي تحطمين بها خوفك وترددك . تعلّمي أن تغتنمي الفرص . تابعي ما يهم الناس ، ويشغل بالهم ، ويلفت انتباههم لتُسيطري عليهم ، حتى لو كنتِ غير مؤمنة بقضاياهم وآرائهم . الحياة مركب فلا تجدّفي عكس التيار» .

اقترب منها ، حاول أن يمسك يديها ، سحبتهما ، شبّكت أناملها بعضها ببعض عند ركبتيها . لم تعلّق على حديثه ، أصابها خرس عقد لسانها ، كانت تود أن تصرخ فيه ، أن تقول له : «أنت أكبر مخادع .كاذب . ما تقوله بين دفات كتبك شيء ، وما تضمره شيء آخر . تُرى كم من الناس مخدوعون فيك؟؟ كم من الأفراد مؤمنون بحروفك النارية؟؟ ويعتبرون فلسفتك في الحياة نبراسًا لهم؟؟»

اكتفت بالنظر صوبه باحتقار ، ملأها شعور بالخيبة منه ، مدت يدها بلا تفكير ، أمسكت كتابه الذي أهداه إليها ، سقطت عيناها على عنوان الكتاب «الطريق إلى الحرية» ، أطلقت زفرة عميقة ، ناولته

إياه ، قـائلة بحـزم «آسـفـة . لا أريد ممارسـة هذا الجنون» . قـامت من مكانها ، أصلحت الوشاح على رأسها ، أولته ظهرها ، اتّسعت حدقتا عينيه ، لاحقـها بعـينيـه الشبـقـتين ، ثقب بوقـاحة نظراته ، استـدارة عجـزها الملفوف ، نفث دخان سيكارته ، متـمتـمًا «سـاذجة . جـاهلة بأصول فن اللعب» .

***

# لا بد أن تُغرّد البلابل

– سيدتي ، السيدة منى في غرفة الضيوف بانتظارك .

– قدّمي لها شيئا . أخبريها أني آتية في الحال .

ارتدت ملابسها على عجل ، نظرت إلى ساعة يدها ، لاحظت أن صديقتها حضرت قبل موعدها بنصف ساعة ، قالت لنفسها بتأفف «كم أحب دقة المواعيد» . ألقت نظرة أخيرة على منظرها في المرآة ، شعرت بالرضا ، بدت أكثر جمالاً ، الهالات السوداء تحت عينيها خفّت كثيرًا عن السابق ، نتيجة الأرق الذي صاحبها في الأسابيع الماضية .

«مها . ما كل هذه الأناقة!! ستكونين نجمة الحفل هذه الليلة» . قالت لها صديقتها وهي تتأمل طلتها .

طوال الطريق لم تكف منى عن الثرثرة ، الحديث عن تفاصيل الحفل ، عن صاحبة الدعوة ، الإشادة بذوقها ، كرمها ، أناقتها ، عن

مركز زوجها الهام في الدولة ، ونفوذه ، وثروته الطائلة .

فُتحت بوابة القصر ، دلفت العربة للداخل ، دارت مها بعينيها في أرجاء المكان ، أنوار الحديقة الخافتة ، الشجيرات المزروعة فيها بعناية وتناسق ، كانت في الركن الجانبي من الحديقة مرصوصة أعداد كبيرة من الطاولات الدائرية ، مغطاة بمفارش بيضاء مزركشة ، محاطة بعدد من الكراسي ، مربوط بظهرها شرائط من التل الزهري اللون .

«أهلاً منى ، تفضلي . ألا تعرفينني على صاحبة هذا الجمال الرائع؟!» قالت صاحبة القصر .

«إنها صديقتي مها التي حدثتك عنها . أتذكرين ، لقد قصصت عليك قصتها . خرجت لتوها من تجربة زواج فاشلة بعد قصة حب عاصفة» .

لوّحت بيدها قائلة «كل الرجال لا أمان لهم . انظري إليّ .كل الناس يحسدونني على الترف الذي أعيش فيه . لا يعرفون أنني أحيا في وحدة قاتلة . زوجي طوال العام في رحلات عمل خارجية ، أعلم أنه يصطحب معه في كل رحلة صديقة جديدة ترفه عنه»!! . متابعة بمرارة «كل هذا لم يعد يهمني ، لقد رميته منذ سنوات خلف ظهري ، وكوّنت لنفسي مجموعة من الصديقات أستمتع بوقتي معهن» .

دققت مها النظر فيها ، إنها بالكاد في الثلاثين من عمرها ، جميلة الملامح ، متناسقة الجسم ، ألقت مها ناظريها حولها ، كل شيء يدل بالفعل على البذخ ، قاعة الضيوف الشرقية كانت مصممة

على شكل جلسة عربية ، السجاجيد الحرير مفروشة على الأرضية المغطاة بالرخام البرّاق ، الخادمات الآسيويات كخلية نحل ، لم يتوقفن طوال الوقت عن تقديم أفخر أنواع الحلوى السويسرية والمشروبات على اختلاف مذاقها ، وقد ارتدين زيًا موحدًا ، أضفى عليهن طابعًا مميزًا .

اقترحت صاحبة القصر على المدعوات بدء برنامج الحفل بعد العشاء ، وافق الجميع بحماسة .كان عشاء مكلفًا يتضمن أصنافًا فرنسية وإيطالية وصينية بجانب الأطباق الشرقية المألوفة .

قالت منى بانبهار «حفلة رائعة . أليس كذلك؟؟» مخاطبة مها .

اكتفت مها بإيماءة من رأسها . اتجهت صاحبة القصر صوب مها ، ألحت عليها أن تأخذ كأس عصير ، ما إن ارتشفت منه رشفة حتى بصقتها ، سألتها بشيء من التوجس عن نوعيته ، ضحكت قائلة وهي تغمز بعينيها «إنه كأس من الجين مع التونك . هذا النوع يجعلك تحلقين في الفضاء . ألا تريدين أن تنسي آلامك!! إنها أنجح وسيلة للنسيان . تجعلك تستغنين عن زيارة عيادات الأطباء النفسانيين» . فهمت مها مغزى كلامها ، أخبرتها بإصرار أنها لا تحب الخمور بسائر أنواعها .

بدأت المغنية في الغناء ، امرأة ذات بشرة داكنة السمرة ، متوسطة العمر ، تحيط بها من الجانبين مجموعة من الفتيات تتراوح أعمارهن ما بين العشرين والخامسة والعشرين ، يُساندنها بالضرب على الدفوف . مهارة المغنية في العزف على آلة العود ، براعتها في الأداء ،

دفعت بعض النساء للرقص وسط القاعة ، وقد تمايلت أجسادهن في حركات منتظمة ، وسط تشجيع الأخريات لهن بالتصفيق ، وترديد الأغاني مع المغنية .

لاحظت مها شيئًا غريبًا يتسرب إلى جو الحفلة ، الأنوار بدأت تخفت ، العيون تُرسل إشارات ذات مغزى ، وفي آخر القاعة بدأت تلتصق كل اثنتين في أوضاع مثيرة . أفاقت من ذهولها على صوت صاحبة القصر قائلة بصوت مخمور «هل أنت مسرورة؟!» . لم تعلّق مها ، ضغطت صاحبة القصر بيدها على كف مها ، ثم كررت المحاولة بالضغط على أحد وركيها بأناملها الدافئة . شعرت مها كأن ماسًا كهرب جسدها ، هباب ساخن طفح على وجنتيها ، ارتفاع حرارة انفعالها . فقدت رباطة تماسكها ، أحسّت بالبلل بين فخذيها ، قامت مسرعة ، لحقت بها صاحبة القصر قائلة بغنج «هل ضايقتك؟!» . تحاشت مها نظراتها النارية ، أبدت رغبتها في الانصراف ، رفضت صاحبة القصر طلبها بحجة أن الحفل مازال يحمل الكثير من المفاجآت ، دعتها للفرجة على أنحاء القصر ، وهي مطبقة على يدها ، وكلما حاولت مها سحبها ، تشبثت بها صاحبة القصر أكثر ، ساقتها إلى جناح نومها ، ذُهلت مها من فخامته ، رجتها صاحبة القصر أن تقعد بجانبها على الأريكة الموضوعة في إحدى الزوايا ، أغرقتها بنظرات حارة زاخمة بالاشتهاء قائلة «كل منّا مجروحة . جربي عالم النساء ستجدين أنه أروع كثيرًا من عالم الرجال» . انتاب مها الذعر ،

تملكها الهلع ، وجدت صعوبة في التخلّص منها ، خرجت مهرولة من الغرفة ، أنفاسها تتلاحق ، عندما غدت خارج القصر ، تنفست الصعداء .

***

«مها ، ما هذا الذي فعلته بالأمس؟؟» . قالت لها منى معاتبة :

«ماذا فعلت؟!»

«لقد أحرجتني مع صديقتي بتصرفك الأهوج . كما إنك انصرفت دون أن تخبريني» .

«بالتأكيد قصّت عليك صديقتك ما جرى» .

«نعم ، وكانت ردة فعلك غبية . لقد افلتِّ من يديك فرصة ذهبية . هذه المرأة كانت ستسد فراغك العاطفي ، بدلا من أكذوبة الرجل الذي تجرعت منه كؤوس المرارة ، الواحدة تلو الأخرى» .

«وما المقابل لكل هذا؟!»

«لا تتظاهري بالغباء . ماذا يضيرك؟؟ إنها امرأة محرومة . زوجة لرجل لاه عنها بأعماله وعلاقاته الخاصة ، من حقها أن تعيش حياتها بالصورة التي ترضيها» .

«وهل أنا من اختارتها لتكون سلوة وحدتها؟!»

«فكري بتعقّل ، وتروي في قراراتك . مع السلامة»

أقفلت صديقتها الخط ، دون أن تدع لها المجال لتكملة النقاش معها ، تمددت مها على سريرها ، أغمضت عينيها ، سرحت بفكرها

في ماضيها ، ذكرياتها اقتحمت خلوتها ، استسلمت لها ، أعادت وهي مسترخية تفاصيل حياتها .

***

عشتُ طفولة رائعة بين أب وأم متفاهمين ، وأسرة مترابطة سعيدة ، أظهرتُ شقاوتي بكل صورها ، مع صديقاتي ، وزميلاتي في المدرسة ، البراءة والسذاجة كانتا الغالبتين على تصرفاتي ، لم أكن كبقية البنات اللاتي تفتّحت مداركهن مبكرًا على التفكير في الجنس الآخر ، وقضاء الوقت في معاكسة الشباب عن طريق الهاتف ، بل كانت تنتابني حالة من اللامبالاة عند الخوض في مثل هذه الأحاديث . أتذكّر جيدًا ذلك اليوم الذي اكتشفتُ فيه هذا النوع من الحب ، الذي ينعتونه بعالم المثليات . هربت كالعادة من قاعة الدرس قبل أن يحين موعد حصة الرياضة ، لألعب وقتًا أطول ، فتحت القاعة لأبدّل ملابسي المدرسية ، تناهت إلى سمعي تأوهات صادرة من الغرفة الصغيرة ، المجاورة للقاعة ، التي تستعملها المعلمة لتخزين أدوات اللعب ، مددت رأسي للداخل وقد تملكني الفضول ، جحظت عيناي ، كانت هناك طالبتان في مشهد جنسي ، لم أرَ شبيهه إلا في السينما المصرية لكن بين رجل وامرأة ، وقع المفاجأة أدخلني في نوبة هستيرية من الضحك ، انتبهت الطالبتان لوجودي ، قامتا بترتيب هيئتهما الخارجية ، خرجتا مهرولتين من الغرفة .

حادث آخر وقع لي ، عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري ،

حضرت إلى مدرستنا طالبة جديدة ، كان مقعدها بجانبي في الفصل ، من أول يوم لها حاصرتني بنظراتها الغريبة ، وأحيانًا كانت تبتسم لي قائلة «ما أجملك . ما أحلى تناسق جسدك» . لحظتها كان يصيبني سهم من الارتباك ، تهرب مني شجاعتي ، يسيطر علي الجبن والخوف منها ، فأبتعد عنها ودقات قلبي أكاد أسمعها من فرط اضطرابي . تعودت حينها أن آخذ الأمور ببساطة وعفوية أقرب إلى السذاجة ، إلى أن اقتحم زوجي حياتي ، تزوجته في بداية مرحلتي الجامعية بعد قصة حب عاصرتها معي كل صديقاتي .

خمس سنوات قضيتها مع زوجي ، معظمها تخللتها خلافات مستمرة ، بسبب الفجوة الواسعة التي كانت بيننا ، كثيرًا ما كنتُ أسأل نفسي «لماذا اخترته هو بالذات ، على الرغم من أنه لم تكن عنده مزايا فتّاكة ، تحمل المرأة ربط مصيرها به» . أدركت بعد فوات الأوان أنني قد أسأت الاختيار ، وأن الطلاق لا بد أن يحدث يومًا .

أحداث الحفلة أيقظت في داخلي كل الأحاسيس ، التي حاولتُ مرارًا دفنها في أعماقي ، جعلتني أتساءل «هل هذا الطريق من المفروض أن تطرقه المرأة ، إذا فشلت علاقتها مع الجنس الآخر؟! هل عالم المثليات سيخرجني من سجن أحزاني ، ويطفىء رغباتي المتعطشة للحب؟! وهل تستطيع امرأة أن تكون بديلاً عن الرجل في حياة المرأة؟!» . كل هذه الأمور تزاحمت في خاطري بإلحاح ، حتى

تعبتُ من دورانها داخل حلقة رأسي .

***

انغمست معها في روتين حياتها ، تشاغلت في الأيام اللاحقة بإعادة ترتيب أوضاعها . انتبهت ذات مساء على رنين الهاتف ، رفعت السماعة ، جاءها صوت أنثوي قائلاً بدلال «هل ما زلتِ متحاملة علي؟؟» . أدركت أن صاحبة القصر هي المتحدثة ، تملكتها الحيرة «كيف أتصرف؟! ماذا أقول لها؟! هل ألغي ما بداخلي من فطرة تجاه الرجل ، وأخطو بقدميّ في هذا الطريق الغامض؟؟ أم أرفض هذا المنحنى لإيماني بأن الطريق ما زال أمامي رحبًا للالتقاء برجل يفهمني ، وأجد عنده الأمان الذي أبحث عنه؟؟ هل أقذف بكل ما تعلمته من قيم ومثل في حياتي ، وأنغمس في بؤرة هذه الرذيلة؟!» . صوت خافت من أعماقها ناداها «تمتعي بحياتك . العمر لحظة سرعان ما تذريها رياح الزمن»

بتر حيرتها صوت المرأة على الهاتف «آلو . . . ألو . . مها . . لماذا أنت صامتة؟!» . كانت عينا مها مصوبتين تجاه النافذة ، حيث الشمس في انحدار للغروب ، وأستار الليل تضفي ظلالها على الأرض ، أيقنت جازمة أن الغروب لا بد أن يتبعه شروق ، وعندما يأتي الغد لا بد أن يأتي فارس نبيل تغرد معه كل البلابل ، مدت يدها ، أغلقت في صمت سماعة الهاتف .

***

# طقوس غير شرعية

جلستْ المرأتان أمام الشيخ صامتتين في تحفّظ ، ناظرتين نحوه بترقّب . أشار بيده لبدء الحديث .

– شيخ عمر . هذه ابنتي فاطمة التي حدّثتك عنها . لقد سمعت عن معجزاتك وقدراتك العجيبة على فك الأسحار . واحدة من معارفي دلتني عليك ، ونصحتني بالمجيء إليك . أرجو أن يكون شفاؤها على يديك .

نظر الشيخ صوب الفتاة ، طفت في أرضيّة عينيه ومضة إعجاب قائلا «جميلة ابنتك . بالفعل أمر مثير للدهشة أنها لم تتزوج إلى الآن . ولكني بإذن الله . .» قاطعته الأم قائلة «لقد تزوجت في السادسة عشرة من عمرها . لم يستمر زواجها سوى شهور قليلة . مر على طلاقها عشرة أعوام ، تقدّم خلالها الكثير لخطبتها ، وفي كل مرة تحدث أمور تعرقل إتمامه» .

«إن شاء الله سيتم زواجها على يدي . لا تقلقي ، أريدك أن تضعي ثقتك الكاملة بي . هل أحضرتِ شيئا من لوازمها؟!» .
أخرجت المرأة من حقيبتها ثوبا ، قدمته للشيخ ، قلبه بين يديه ثم وضعه بجانبه . اقترب من الفتاة ، أخذ يتفرّس فيها بنظرات ثاقبة . له عينان حادتان ، يعلوهما حاجبان كثيفان ، ولحية غير مشذبة ، أصلع الشعر ، وإن كانت هناك بعض الشعيرات البيضاء في مؤخرة رأسه ما زالت متمسكة بمواقعها ، بنيته ضخمة ، منكباه عريضان ، قمحي البشرة ، في منتصف عقده الخامس . يُقابل زبائنه في العادة بثوب أبيض فضفاض ، لا يفلح في إخفاء كرشه البارز .

تسرّب إلى الفتاة خوف مبهم منه ، تمنّت لو تسحب أمها من ذراعها وتهرب من هذا المكان . انتابها إحساس بالنفور من كل ما في الغرفة ، تملكها شعور بالاختناق من الأجواء المحيطة بها ، لكنها ألجمت انفعالاتها المضطربة ، مؤثرة السكوت والانصياع على مضض .

عاود رشق الفتاة بنظراته ، مخاطبا الأم «سأبدأ العمل من الليلة . لا بد أن تضعي مبلغا من المال لأشتري اللوازم المطلوبة . سأترك مشاغلي الأخرى من أجل ابنتك» .

أخذ يُعدد للأم قائمة مطالبه من أبخرة وخلافه ، فتحت الأم حقيبتها ، سحبت رزمة من النقود ، وضعتها أمام الشيخ قائلة «أتمنى أن تنتهي سريعا . لن نستطيع المكوث أكثر من أسبوعين . لقد أتينا من بلادنا خصيصا لأجلك . كلّي أمل أن تحُلَّ عقدة ابنتي على

يديك .

هز الشيخ رأسه مطمئنا إياها ، حدد للفتاة عدة جلسات ، منبِّها الأم على وجوب حضور الفتاة في المواعيد التي يُحددها لها ، مشترطا عليها وجوب تلقي الفتاة جلسات العلاج بمفردها .

***

أشار الشيخ للفتاة أن تدخل للغرفة ، طافت بعينيها في أرجائها ، الفوضى كانت تعمها ، بعض التماثيل الشمعية ملقاة في إحدى الزوايا ، أكياس من البخور موضوعة على طاولة خشبية متآكلة أرجلها ، ومقعد متهالك قديم ملاصق لها ، وبعض الأوراق والأحجبة الجلدية مرصوصة بعناية على رف معلق على الحائط ، ومرتبة من الإسفنج ممزقة ، متسخة ببقع داكنة اللون ، ملقاة على الأرض بوسط الغرفة .

طلب منها الشيخ أن تلزم الهدوء ، وتقف دون حراك عند الكرسي الموضوع أمامه . أطفأ النور ، شعرت بالهلع ، صرخت ، نبهها إلى خطورة تكرار هذا الفعل ، استسلمت بخوف ، كل ما بداخلها كان يرجف ، وضع كفه على رأسها ، بدأ في قراءة الطلاسم ، لم تفلح في فهم معانيها ، حتّى هيئته لم تتبينها في الظلمة الحالكة المهيمنة على المكان . فجأة اندلعت شعلة من اللهب وسط الغرفة ، أضاءت جنباتها ، قفزت من مكانها ، أمسكت بجلبابه ، دنا منها ، أعاد وضع كفه على رأسها ، استمر في القراءة ، أحست بأنفاسه تلفح وجهها ،

تملكتها الرهبة منه ، شعرت بقواها تخور ، فقدت الوعي بكل ما يدور من حولها ، أخذ يجردها من ملابسها ، مددها على المرتبة ، استجابت له بلا مقاومة . انطفأ اللهب ، عادت العتمة تعم المكان ، شعرت بكتلة من اللحم تجثم على صدرها ، أنفاس ساخنة تلهب وجهها ، رغبت في الصراخ ، النهوض من رقدتها ، لم تفلح ، كانت أطرافها مخدرة ، أيدٍ خفية تُثبتها في مكانها ، شيء مبهم يُلجم لسانها ، همس في أذنها بصوت أجش «هذا من لزوم العمل . لن أستطيع فك سحرك إلا بهذه الطريقة» .

استمرت العملية دقائق ، لم يتوقف خلالها عن قراءة طلاسمه ، أحست خلالها بسائل ساخن يتدفق بين وركيها ، يكوي أعماقها ، تسرّب لحظتها إلى دواخلها إحساس قاتل ، بأن روحها تدنست ، كبرياءها تحطمت ، وأنها تسمع صوت تهشّم عظام عفتها . أكوام من الخزي والعار جثمت على قلبها ، ضربات من تقريع الضمير انهالت عليها من كل صوب . أزاح جسده عنها ، استعادت إرادتها ، أضاء نور الغرفة ، طلب منها ارتداء ملابسها ، جلست أمامه على الكرسي دون أن تقوى على النظر إليه . سطّر بالمداد الأحمر بعض الكلمات على ورق أبيض ثم طواه . حذّرها من إخبار والدتها بما جرى ، وإلا ستنقلب طقوس السحر عليها ، مؤكدا عليها بوجوب عدم الانقطاع عن بقية الجلسات .

***

- مبروك . أستطيع القول إن ابنتك قد شفيت تماما . لن يكون هناك ما يمنعها من الزواج . لقد كان زوجها السابق وراء هذه العوائق .

ردت الأم بنبرة فرحة : لا أعرف كيف أشكرك .

- هذان الحجابان لا بد أن يظلا معها . هذا تضعه في حمالة صدرها ، والآخر تدسه تحت وسادة سريرها .

كانت الفتاة تستمع للحديث في قرف واشمئزاز ، وكلما اصطدمت عيناها بعيني الشيخ تملّصت منهما ، متحاشية نظراته النارية إليها . عند خروجها ضغط على يدها ضغطة قوية ، متمنيا لها حظا طيبا ، وزواجا قريبا . سحبت يدها بسرعة من يده ، تشبثت بذراع أمها ، خرجت مهرولة من المكان .

***

قامت الأم على صراخ ابنتها ، دخلت عليها الغرفة ، وجدتها غارقة في عرقها ، مصفرة الوجه ، بدنها يرتجف تحت الغطاء ، ضمتها إلى صدرها ، أخذت تقرأ آية الكرسي وهي تُمسّد لها بكفها على رأسها . سألتها بجزع «ما بك؟!» . لم تجبها ، كان بداخلها صراع مرير بين رغبتها في مصارحة والدتها بما جرى ، وخوفها من تحذيرات الشيخ ، وكلما تذكرت وقائع ما جرى ، زجّت بجسدها تحت صنبور الماء ، لتنظّف جلدها من بقايا الرجل النجسة . كانت حالتها تزداد سوءا ، فقدت شهيتها للأكل ، عيناها طوال الوقت زائغتان ، كأنهما تبحثان عن شيء مفقود ، فكرها شارد ، صامتة طوال الوقت .

اعتقدت الأم في البداية أن كل هذا يعود للكوابيس التي تُصاحب ابنتها في منامها ، تملكها القلق ، تلاقت عيناها المتنمرتان القادحتان بالريبة والشك بعيني ابنتها المنكسرتين ، اللتين تشعان هلعا . لم تجد إجابة شافية تطمئنها . استدعت الطبيب ليطفئ نيران هواجسها ، فحص الطبيب الفتاة بعناية ، نظر صوب الأم قائلا : مبروك ابنتك حامل .

***

# امرأة على فوهة بركان

وقفت المرأة أمام المرآة ، نظرت بحسرة إلى معالم جسدها ، وقع بصرها على حلمتي ثدييها ، لاحظت انتصابتهما ، لوت شفتيها ، أدارت رأسها ناحية زوجها ، كان يغطُّ في النوم ، رشقته بقرف ، صوت شخيره ضاعف نفورها ، أشاحت بوجهها عنه ، حشرت ثدييها في حمالة صدرها ، أكملت ارتداء ملابسها ، سحبت عباءتها من المشجب ، دلفت إلى غرفة الجلوس ، رمت عجيزتها على الأريكة ، ألقت بصرها على التلفاز ، أخذت تُقلّب قنواته بالريمونت كنترول وهي شاردة بذهنها بعيدا عن مشاهده ، رن جرس الهاتف ، أعادها لأرض واقعها ، هرعت بلهفة نحوه ، تحدثت بصوت منخفض ، ارتسمت الفرحة على معالم وجهها ، شيء من الارتياح تسرّب لدواخلها المضطربة بعض الشيء ، ارتدت عباءتها على عجل ، صوت زوجها القادم من مخدع النوم اخترق سياج غبطتها ، اتجهت صوب الغرفة ،

سألته بجفاء «ماذا تريد؟!» .

سألها بنبرة ناعسة «أين ذاهبة؟!» .

«لشراء بعض الأغراض قبل حلول المساء ، وسأمر في رجوعي على مروة صديقتي» .

رمقها بطرف عينه ، قائلا بنبرة معاتبة «لم تعودي تحبينني» .

أجابته بتأفف «عدنا إلى الموشح نفسه . لندع العتاب جانبا» .

أولته ظهرها متابعة القول بنبرة هازئة «إذا رغبت في شيء ستجد الخادمة . هي دوما رهن إشارتك» .

شعرتْ بالاختناق من أجواء البيت الكئيبة ، هرولت إلى الخارج ، دلفت إلى داخل السيارة ، طلبت من السائق أن يذهب بها إلى الكورنيش ، جلست على واحدة من الصخور الكبيرة ، المستلقية بوداعة على شاطئ البحر ، لفحت النسمات وجهها ، انحسر الوشاح عن رأسها ، تطاير شعرها الأسود الفاحم ، لامس بحنو صدغيها ، هدير أمواج البحر حرّك مجرى ذكرياتها ، دفعها ناحية شط ماضيها ، انخرطت في البكاء ، لاحت لها صورة زوجها ، وأحداث تلك الليلة القاتمة ، لم تكن قد أكملت عامًا على زواجها ، أخبرته أنها مضطرة للمبيت عند أهلها بمكة ، عدلت عن رأيها بعدما تشاجرت مع أختها الصغرى ، أصرّت ليلتها على العودة لجدة ، ما إن أدارت المفتاح في باب الشقة ودلفت إلى الصالة حتى سمعت فحيحًا ، يصدر من غرفة نومها ، انقبض صدرها ، مشت على أطراف أصابعها ، شعرت

بالأرض تدور بها وعيناها تقعان على زوجها وفي أحضانه ترقد خادمتها الآسيوية على سريرها . أصابها الوجوم ، قام يجري كالفأر المذعور ، قدّم بعدها اعتذارات وتبريرات واهية ، طالبا الصفح والغفران ، وعدها أنه لن يعود لمثل هذا التصرف مرة أخرى ، لمحته في مرات لاحقة وهو يداعب خادمتها الجديدة ، يضربها على مؤخرتها بشهوة مكشوفة ، وهي تتمايل أمامه بأنوثة مفضوحة . توالت الحوادث ، تكرر الأسف ، أصابها تبلّد حسي تجاهه ، برود غريب تسرب لأعماقها كلما حاول لمسها أو ممارسة الجنس معها ، تكوّن بداخلها شعور مفرط لم تستطع كبحه ، إنه بؤرة نتنة ، ماء ملوث يصب في أي مجرى مهما كان منبعه .

أفاقت من شرودها على أبواق السيارات المتزاحمة في الطريق ، إحدى السيارات لمح أصحابها الجسد المكوّم على الصخرة ، تعالت أصواتهم بكلمات غزل جريئة ، اضطربت ، أعادت الوشاح على رأسها ، تجاهلتهم ، عندما يئسوا من المحاولة ابتعدوا . الأغاني المنبعثة من أجهزة التسجيل اختلط بعضها مع بعض ، صوت محمد عبده وأغنيته «أرفض المسافة» تداخل مع صوت عمرو دياب وأغنيته «ويلوموني» مع صوت أم كلثوم وأغنيتها «هجرتك» ، تعبت أعصابها من هذا الضجيج ، الذي لم يحترم خلوتها . دفنت رأسها بين ركبتيها ، غاصت في بحر أحزانها ، نجحت أمواج البحر المتلاطمة في إعادة السكينة لنفسها التائهة ، التي كلّت من البحث عن مأوى آمن .

أقفلت عائدة ، تذكرت المغامرة التي تنتظرها في الغد . منذ أيام وهي خارجة من السوبر ماركت ، رمى لها رجل ورقة بها رقم هاتفه ، راقت لها هيئته ، جسارة نظراته ، تجرأت ودست الورقة في حقيبة يدها ، لم تعرف عنه سوى القليل ، مجرد مكالمات خاطفة عبر الهاتف : «يقولون في العلاقات العابرة لا تهم الظروف المحيطة بالشخص ، المطلوب فقط أن يكون قادرًا على تأدية الاحتياج المطلوب» . ابتسمت لنفسها ، مرددة عبارة خدّرت أعصابها «غدًا سأدخل جنتي الموعودة التي رسمتها في خيالي ، وليذهب الجميع إلى الجحيم» .

قامت صباح اليوم التالي مضطربة بعض الشيء ، أعادت تصفيف شعرها عدة مرات ، الساعة دقت العاشرة ، لم تزل هناك ساعة على الموعد المضروب ، اختارت هذا التوقيت لتضمن وجود زوجها في العمل ، رن جرس الهاتف ، ردت بلهفة «سأنزل بعد نصف ساعة . نعم أعرف العنوان . لا سأفهم السائق أنه مسكن صديقتي الجديد . مع السلامة» . أقفلت الخط ، عادت مسرعة لغرفتها لتكمل هندامها .

توقفت السيارة عند باب العمارة ، تلفتت يمنة ويسرة ، طلبت من السائق الانتظار ، فتحت باب المصعد ، ضغطت على زر الطابق الذي تريده بعصبية ، توقف بها عند الطابق الثالث ، قالت لنفسها «لا . الشقة في الدور الرابع . سأكمل على قدميّ» . صوت حذائها كان

كالسوط يلهب فؤادها ، أحست كأن أزمة قلبية أطاحت بشجاعتها ، وستؤدي إلى مقتلها . وقفت أمام الشقة ، رقم عشرة تراقص أمام عينيها ، توهمت أن شللاً أصاب ذراعها ، قواها خذلتها ، لم تستطع الضغط على زر الجرس ، سمعت جلبة وضوضاء بالدور العلوي ، ارتبكت ، أسدلت الوشاح على وجهها ، ضغطت على الزر بشدة ، لاح لها الرجل مبتسمًا من خلف الباب الموارب ، سحبها من ذراعها ، العرق بدأ يتصبب من مسامات جلدها ، طافت بعينيها في هيئته ، وطاف هو بعينيه في مفاتنها ، كان مرتديًا جلباباً مفتوحًا عند أعلى صدره ، نظراتها تسمّرت في شعيرات صدره النافر ، رائحة عطره الرجولي غطّى على عبق عطرها ، كل شيء يشير إلى عمق فحولته الفتية ، اقترب برفق منها ، حاول إزاحة عباءتها عنها ، تمسّكت بها ، سألها بنبرة رخيمة «هل أنت خائفة؟؟» . لم تجبه ، كل آلام الماضي التحمت مناظرها في مشهد واحد في ذهنها ، صوت مجلجل اخترق ذبذبات عقلها قائلاً لها «مازلت عند بر الأمان . السفينة لم تقلع بعد» . اقترب منها أكثر ، أنفاسه لمست صفحة وجهها ، استجمعت قوتها ، دفعته عنها ، اتجهت صوب الباب ، خرجت متعثرة في عباءتها ، قفزت فوق درجات السلم ، نيران من الاحتجاج اندلعت فيها ، طلقات من الندم اخترقت ضميرها ، ركبت سيارتها ، أمرت السائق بالتحرّك مرددة في عناد «لا ، لن يكون الثمن عمري» .

***

# وفاحت رائحة عرقـــها

- لقد حكمت المحكمة بمبلغ ألف ريال ، نفقة شهرية لك لحضانتك طفليك .

- إنه مبلغ ضئيل ياسيدي القاضي . لن يكفيني . أنت تعلم أن المعيشة أصبحت مرتفعة هذه الأيام .

- لقد حسمت المحكمة الموضوع ، حسب ما رأته لمصلحة الطرفين .

- لكنني كافحتُ معه سنوات طويلة . بدأتُ معه منذ أن كان موظفا صغيرًا حتى أصبح رجلا ناجحا . أهذا جزاء الأوفياء؟!

- انتهت جلستك . افسحي المجال لغيرك .

خرجت المرأة من المحكمة ، تتخبط في مشيتها ، الدموع تتساقط غزيرة من عينيها ، متسائلة بحيرة «كيف سأعيش بهذا المبلغ؟! لقد تعودت على مستوى مادي معين . كم كنت غبية . لم أحسب حسابًا

للزمن ، ولا لغدر الزوج ، طلقني بسبب صبية صغيرة سلبت عقله ، رفضتْ أن تكون الزوجة الثانية ، خيّرته بيني وبينها ، رجحت كفتها ، ألقاني في الطريق كجيفة نتنة» .

قطع تفكيرها توقف سيارة الأجرة عند باب منزلها ، أصر السائق على أن تعطيه المبلغ الذي حدده ، برر طلبه أن البيت بعيد ، والطرقات المؤدية إليه كثيرة المطبات ، والأرض تعلوها المياه الوسخة من البيارات الطافحة . نفحته النقود متأففة ، دلفت للداخل ، تحسرت في نفسها على ما وصلت إليه حالها ، البناية قديمة ، السلالم متآكلة ، صعدت على قدميها ، وضعت المفتاح في عين الباب ، سمعت صريرًا ، أدارت وجهها جهة الصوت ، لمحت جارتها تقف خلف باب شقتها وقد برز رأسها منه ، سألتها بنبرة حانية «طمئنيني . ماذا فعلت بالمحكمة؟؟» .

أجابتها بنبرة منكسرة «أتصدقين!! لقد حكموا لي بألف ريال فقط» .

تنهدت قائلة «أتدرين . يقولون في الدول الغربية تأخذ المرأة المطلقة نصف ثروة مطلقها إذا أثبتت كفاحها معه من الصفر ؛ بل سمعت أن هناك من تتقاضى مبلغا كبيرا عن كل يوم قضته مع الزوج» .

– هذا هناك . عندنا للأسف تُعامل المرأة كالخيل العجوز . يُطلق صاحبه عليه الرصاص بمجرد أن يُصبح غير قادر على العمل .

– أنا خائفة عليك . لقد تعودت العيش في مستوى اجتماعي

مرفه، والسكن في فيلا كاملة المستلزمات، واليوم..

- لا تكملي. هل لديك حل؟!

- نعم. لماذا لا تتحدثين مع مطلقك؟! حاولي التفاهم وديًا معه. ربما يشفق عليك، وعلى طفليك.

- الأبوة لا تحتاج لاستدرار الشفقة. لقد أسقطنا من حساباته وانتهى الأمر.

- ارمي له ولديه، وتمتعي بحياتك. مازلت شابة، والعمر لا نعيشه سوى مرة واحدة.

- لا أتصور حياتي بدون ولديَّ. كأنك تطلبين مني نزع روحي بيدي من بين ضلوعي.

- لن تستطيعي تحمّل هذا الوضع طويلاً.

- «الله كريم» قالتها ودلفت للداخل. ألقت بكتلة جسدها على الأريكة البالية الوحيدة في صالة البيت الضيقة. اندفع نحوها طفلاها، ضمتهما لصدرها، تاركة الدموع تنهمر صامتة من عينيها، تتأوه بصوت مكتوم أدمت نبراته صدمات الحياة. شيئا فشيئا سحبها قارب آلامها إلى قاع ذكرياته البعيدة، فأخذت تتخبّط في يمٍّ طفولتها التعيسة.

***

مازلتُ أذكر ذلك اليوم جيدًا، الذي خرج فيه أبي ولم يعد، لم أكن قد أكملتُ سنواتي العشر الأولى. رأيت أمي تبكي بحرقة في

غرفتها ، حاولت بسذاجتي إخماد حزنها ، إيقاف دمعها ، حشرتُ بنيتي الصغيرة في حجرها ، قبلتها في صدغها ، لم تنجح براءتي في تحريرها من قيد معاناتها . كنت ألمحها أحيانًا وهي تمسك بصورة أبي ، تتأملها في شوق ، وأحيانًا أخرى تبصق عليها ، قمتُ ذات ليلة من نومي فزعة على ضجيج حاد ، ارتجت له أرجاء بيتنا ، رأيتها تقف وسط غرفتها ، وصورة أبي الكبيرة ملقاة على الأرض ، وأمي تدوس عليها بقدميها ، صارخة بكلمات لم أفهمها وقتها «أنت السبب . لن أسامحك . ذنبي في رقبتك» . هرعتُ لغرفتي ، دسستُ جسدي تحت الفرش وأنا أرتجف هلعا من فعل أمي ، أقرأ بصوت خافت آية الكرسي ، التي عودتني أمي على قراءتها قبل خلودي للنوم .

بعد أشهر من طلاق أمي ، ظهرت أشياء كثيرة في بيتنا ، أثاث جديد أُستبدل بالقديم ، أمي بدت أكثر نضارة وحيوية ، خفّت عصبيتها ، شعرها الذهبي ازداد توهجًا ، بشرتها اكتست حمرة ، حتى جسدها امتلأ عن السابق ، وبعد أن كانت تنهرني أنا وأخي عن الخروج ، غدت تتركنا أوقاتًا طويلة نلعب فيها على السطح مع صديقنا محمود ، وتحضر لنا لعبًا كثيرة ، لم تكن تملك من قبل القدرة على شرائها . في ليال كثيرة كنت أشعر بخوف مجهول ، وتنتابني رغبة في الارتماء بأحضان أمي ، فأترك سريري ، وكلي رغبة في النوم في حضنها . أعود أدراجي عندما ألمح أشباحًا حية تتحرك في غرفتها ، تختلف ملامحهم كل ليلة ، وتتناهى لسمعي رنة ضحكة أمي

مصبوغة بدلال مصطنع ، وأبواب تقفل ، وآهات وهمسات لم أفلح وقتها في حل شفرتها .

قمتُ ذات مرة أنا وأخي مذعورين ، على ضربات متتالية ، قوية على باب شقتنا ، أيقظتنا من سباتنا عند منتصف الليل ، سمعت صوتًا يغلي غضبا ، مألوفًا على أذني ، يُخاطب أمي بنبرة قاسية ، فيها تهديد ووعيد «لملمي أغراضك ، وارحلي الليلة ، لا أريد أن يتسخ بيتي بالقحاب» . ترجّت أمي صاحب البيت أن يسمح لنا بالبقاء بضعة أيام حتى تعثر على سكن آخر مناسب . رأيت أمي بعد خروجه تنتحب بصوت يدمي القلوب . منذ زمن لم أرها تنظر إلى صورة أبي ، أخرجت حاجياته المكومة وسط أشيائنا القديمة ، نظرت إليه في عتاب قائلة «أنت السبب . لن أسامحك» .

قلتُ لمحمود صديقي الذي يقطن أهله بجوارنا بعينين دامعتين «لن أراك بعد اليوم» . أجابني متأثرا «لن أنساك . عندما أكبر وأصبح رجلاً ، سأبحث عنك لأتزوجك» . أعطيته دميتي قائلة «أريد أن تشتري لي ثوبًا أبيض ، مشابهًا لثوب دميتي» . ضمني إلى صدره ، وقبلني على صدغي .

كنتُ وقتها قد أتممت العاشرة ، وكان محمود في الثانية عشرة ، تركنا الحارة ونظرات أهلها تقذفنا بكلمات نابية ، وتنظر صوبنا بازدراء ، تعلقت عيناي بعيني محمود ، والسيارة تعدو بنا خارج الحارة حتى اختفت ملامحه من أمام ناظري ، دفنت وجهي في حضن أمي

وبكيت بحرقة .

بيتنا الجديد أجمل كثيرًا من القديم ، غرفه أوسع ، لكنني لم أستطع التآلف معه بسهولة ، كنتُ أشعر بالحنين لبيتنا ، وحارتنا ، والسطح الذي كنا نلعب فيه أنا وأخي ومحمود . زاد من وحشتي وغربتي ، غياب أمي الطويل عنا ، تخرج في الصباح ، ولا تعود إلا مع غروب الشمس ، وأحيانًا تبيت خارج البيت ، لتعود في اليوم التالي وآثار السهر والإجهاد بادية عليها .

في ليلة من الليالي أصابت أخي رعشة حمى ، وارتفعت درجة حرارته ، انتظرت ليلتها أمي ، لكنها لم ترجع إلا في صباح اليوم التالي ، كان أخي قد علت وجهه صفرة غريبة ، لم يسعفني عمري الصغير في تقديم المعونة له ، جزعت أمي حين وقع بصرها عليه ، هرعت به إلى المستشفى ، لكنه مات عند عتبتها ، لم يتحمل جسده النحيل الحمى ، من يومها تغيرت أحوال أمي ، شاخت قبل أوانها ، لم تعد تُغادر غرفتها إلا نادرًا ، اعتدتُ سماعها كل صباح ومساء تتلو آيات القرآن بصوت نادم .

انتقلنا إلى بيت صغير بأحد الأربطة ، مكوّن من غرفتين ، وعندما يهلُّ مطلع الشهر ، تأتينا الأرزاق من أهل الخير . تعثرتُ في دراستي ، كنت أمكث السنة بسنتين ، لم أتمكن حينها من الاستمرار في الدراسة ، حصلت بالكاد على الابتدائية ، أقعدتني بعدها أمي بجوارها ، أساعدها في أعباء البيت ، وانتظار ابن الحلال .

لم أكن قد أتممت الخامسة عشرة من العمر ، حين جاءت لزيارتنا سيدة مسنة ، أخبرت أمي أن لديها قريبًا ، شاب يرغب في الاقتران بفتاة طيبة ، و أنها اختارتني لأدبي ، ولكوني ست بيت بمعنى الكلمة ، منذ زمن بعيد لم أر الفرحة تعلو وجه أمي ، لمحتها تمسح دمعة انسابت على وجنتيها ، سألتها عن سبب بكائها ، أجابتني بفرحة «كنت خائفة أن أموت قبل أن أفرح بك» .

ماتت أمي بعد زواجي بعام ، وهي راضية ، سعيدة أنها تركتني في كنف زوج يحميني من غدر الزمان . تُرى هل سأكون يوما صورة من أمي؟! هل سأكرر أخطاء عمرها؟! هل سأعيش سوداوية حياتها؟! لماذا ينتابني إحساس مفاجىء بين حين وآخر ، أن هناك نقطة تشابه بيني وبينها؟!

***

قرع الباب ، توقفتْ المرأة عن العوم في خضم ذكرياتها ، قامت من مكانها ، كان ابن صاحب البيت ، أرسله والده ليُطالبها بقيمة الإيجار ، رجته أن يمهلها بعض الوقت ، نام طفلاها ، شعرت بوجع في رأسها ، دلفت إلى غرفتها ، تمددت على سريرها ، محاولة العثور على مخرج لمشاكلها ، تعبت من التنقيب ، سرق النوم مقاومتها ، دخَلت طواعية في عالمه .

في الصباح ودّعت طفليها وهما ذاهبان للمدرسة ، خاطر مفاجئ طفا على سطح تفكيرها ، تجرّدت من ملابسها ، وقفتْ أمام مرآتها ،

تأملتْ تضاريس جسدها ، لم تفلح عوامل الحمل والولادة من سرقة معالم جماله ، أدارت مؤشر المذياع ، انطلقت من إحدى موجاته أغنية راقصة ، هزت ردفيها على نغماتها ، تذكّرت زوجها ، عبارته التي كان يقولها في لحظات الانسجام «جسدك رائع» .

تنهدتْ بعمق ، تذكّرت أوجاعها ، تمرّغت ثانية في أوحال همومها ، نظرت إلى ساعة يدها ، مازال هناك متسع من الوقت لحين رجوع طفليها من المدرسة ، شعرت بالضجر ، لبست عباءتها ، لم تكن تدري أين تذهب ، شعور بالقرف والغثيان من كل شيء ملأها ، رغبة في الهرب من واقعها الأليم ، اعترض طريقها ابن صاحب البيت ، ابتسم لها ، سهامه الفتية اخترقتها ، نظراته الجائعة التهمتها ، لوّح لها بيده ، تبعته ، انساقت خلفه إلى غرفة المخزن بالسطح ، كوّر جسدها عند إحدى الزوايا ، أفرغ شهوته على عجل في عمق أنوثتها ، استسلمت له مكرهة ، وقد وارت وجهها الباكي بوشاحها الأسود ، قام مسرعًا ، شد سرواله لأعلى خصره ، دس يده في جيبه ، دون أن ينظر نحوها ، ألقى إليها بحفنة من النقود ، مدت يدها في حركة مسعورة ، أطبقت عليها بأصابعها المعفرة بأتربة الغرفة ، وقد فاحت في المكان رائحة عرقها المحترقة بجمرات الخطيئة .

***

# اللوحـــة

أخذت تتقلّب على جنبيها ، النوم عاف جفنيها ، تطلعت إلى ساعة الحائط المعلقة في مواجهة سريرها ، ما زال الوقت مبكرا ، لم يتجاوز السابعة صباحا ، حوّلت عينيها صوب اللوحة الملتصقة بجوار الساعة ، التحمت نظراتها بنظرات صاحبة اللوحة ، أشاحت بوجهها عنها ، حاولت الهرب من نظراتها الثاقبة ، لم تفلح ، عاودت فتح حدقتي عينيها في تحدٍ وعناد ، كانت خطوط اللوحة عبارة عن وجه مرسوم لامرأة ملأ ساحتها ، وشغلت عينا المرأة حيزًا كبيرًا منه . «بالتأكيد اكتشف الفنان الذي رسمها مكمن جمال هذه المرأة» هكذا قالت لنفسها .

أجواء الغرفة ، دفء الفراش ، ساهمت في استرخاء جسدها من جديد ، سحبت الغطاء إلى كتفيها العاريتين ، أخفت ذراعيها تحت الوسادة ، حاولت معاودة النوم ، جحافل الذكريات زحفت على أرض

تفكيرها ، احتلت كل بقاع واقعها ، تذكرت أول مرة انسكب صوته في أذنيها ، كانت قد هاتفته ذات صباح ، طالبة منه كشخصية بارزة في بلدها ، التبرّع بمبلغ سنوي لعدد من الأسر الفقيرة ، يومها قطع عليها كلامها سائلا إياها بصوت رخيم النبرات «هل يهمك أمر هذه الأسر حقا؟» . أجابته متحمسة «بالطبع لقد اطّلعتُ على ظروفهم بنفسي» . خرج بمهارة عن صلب الموضوع ، ألقى عليها أسئلة كثيرة ، كانت ترد عليه بدون خجل أو تردد ، طلب منها أن تُحادثه في اليوم التالي لمتابعة أمر التبرّع . اتصلت به في الموعد المحدد الذي ضربه لها ، ضغطت أرقام هاتفه وكلها تلهّف لسماع صوته ، أصابتها خيبة أمل حين أخبرها مدير مكتبه أنه اضطر للسفر فجأة ، مؤكدا لها بأنه لن يتغيّب أكثر من عدة أيام . أحسّت بالضيق يجثم على صدرها ، عاودت الاتصال بعد انتهاء المدة ، تملكها الفرح حين اخترق صوته طبلة أذنها ، سائلا إياها «من المتحدّث؟» . ارتبكت قليلا ، أحست بالضيق ، عرّفته بنفسها ، متبرمة في دواخلها «كيف نسي صوتي!!» . استفسر منها عن آخر أخبارها ، نشاطاتها ، فجأة سألها بجرأة «هل يمكنني رؤيتك؟» . ألجمها طلبه ، لم تتوقع عرضه بهذه السرعة ، تلعثمت في الكلام ، قطع عليها اضطرابها قائلا «سأترك لك حرية التفكير . اكتبي هذا الرقم . أفضّلُ أن تتصلي عليه» . حيّاها وأقفل الخط . كل هذه التطورات السريعة خلّفت صراعا في أعماقها . «هل أقابله؟! هل أشطب رقم هاتفه؟! هل أعتذر عن مقابلته؟!» . لم تصل

إلى نتيجة ، قررت تجميد الأمر بعض الوقت ، بعد أيام وصلها مظروف باسمها ، فتحته ، وجدت به شيكا بمبلغ أكبر مما كانت تتوقعه محررا بتوقيعه ، ألفتها فرصة سانحة لمهاتفته ، شكره على مبادرته السخية . أدارت رقم هاتفه ، انسكبت نبرات صوته في مجرى شرايينها وهو يقول «ألو» . شعرت بدقات قلبها تعلو ، أنفاسها تتلاحق ، لم تقوَ على التحدّث ، أغلقت سماعة الهاتف ، أنّبت نفسها على فعلتها الجبانة . «لماذا كل هذا التوتر؟» . قالت لنفسها . جمعت رباطة جأشها ، عاودت الاتصال ، اخترقت نبراته حواجز هلعها ، ألقت التحية عليه ، سألها بلهفة ظاهرة «أينَ كنتِ مختفية طوال هذه المدة؟ . لماذا هذه الغيبة؟!» . نشوة غمرتها ، قالت «كنتُ مشغولة بدراسة حالات بعض الأسر» . صمت تسلل بينهما ، اخترق أسلاك الهاتف ، ظل كل منهما صامتا ، قطعه بتكراره الطلب نفسه الذي ختم به مكالمته الأخيرة «هل يمكنني رؤيتك؟» . لم تقو هذه المرة على القبول أو الرفض ، طلب منها تسجيل عنوان استراحته كما كان يسميها ، كتبت العنوان دون مناقشة .

***

أسبوع مضى وهي عاجزة عن اتخاذ قرار ، بدت متوترة ، عصبية ، مشتتة التفكير ، في لحظة شوق جارف له ، رفعت سماعة الهاتف ، أتاها صوته ، سألته متشوقة «مشغول غداً!!» . ضحك ضحكة خبيثة ، قائلا بثقة «سأنتظرك تمام الساعة السابعة» . حيّاها وأقفل الخط .«دائما

هو صاحب القرارات» - قالت لنفسها . هواجس التفكير حاصرتها من كل جانب ، أدت إلى طرد النوم من عينيها طوال الليل . ظلّت تُحاور نفسها حتّى ساعات الفجر الأولى «غدا أول مرة في حياتي سأدلف إلى بيت رجل غريب . لكنني لم أعد صغيرة . أضحيت في الثلاثين من العمر . نضجت بما فيه الكفاية» . منذ بداية النهار وهي تعدُّ نفسها لهذا اللقاء ، وقفت طويلا أمام دولاب ملابسها ، تريد أن تنتقي ثوبا مناسبا لهذا اللقاء ، أن تبدو جميلة ، وغاية في الأناقة . كانت تؤمن بأن اللقاء الأول له اعتبارات كثيرة عند الرجل ، تعبت من التنقيب ، وقع اختيارها على ثوب أحمر اللون .

وقفت سيارتها أمام باب منزله ، نظرت إلى ساعة يدها ، كانت في تمام السابعة ، أحست كأن شباكًا من الخوف تلتف حول جسدها ، شيء خفي يحثها على التراجع ، قدماها تجمدتا عند عتبة الباب ، تشجّعت وطرقته ، فتح الباب سريعا ، هرولت بسرعة إلى الداخل وهي تلتقط أنفاسها ، نظر إليها بإعجاب وهي تزيح عباءتها عنها قائلا بإعجاب «لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الجاذبية!!» . ابتسمت وقد تخضّبت وجنتاها ، دفء كلماته أذاب جليد الهواجس في أعماقها ، جلست قبالته على الأريكة ، سألها «ماذا تفضلين . احتساء كوب من الشاي أم القهوة؟!» . تابع حديثه «قومي معي . أريد أن أريك أرجاء صومعتي» . حدّقت فيه بشك وريبة . ابتسم «لا تخافي . لست من فئة مستغلي الفرص . لن آخذ شيئا منك دون رضاك» .

كان المنزل ينمُّ على ذوق رفيع، وغال في الوقت نفسه، وقف عند باب غرفة النوم، أشار بيده إليها «هذه الغرفة أخلد إليها حين أرغب في الهرب من خضم مسئولياتي». لمحت فوق السرير لوحة لامرأة مرسومة بدقة متناهية، أجمل ما فيها ملامح الوجه وبروز منطقة العينين. تسمّرت قدماها عند اللوحة، شعرت منذ اللحظة الأولى بأن هناك شيئا مشتركا يجمع بينها وبين هذه المرأة، ربما النظرات متشابهة، البريق نفسه الذي يشع من بؤبؤي العينين، ظلال الحزن نفسها المرسومة في حدقتيها. نسيت وجوده، سرحت بفكرها مع اللوحة، قطع عليها شرودها تعليقه مشيرا بيده صوبها «لقد اشتريتها من فينيسيا، من أحد الفنانين الذين يبيعون فنهم على الرصيف. هل أعجبتك إلى هذه الدرجة؟». أومأت بالإيجاب، اقترب من اللوحة، رفع ذراعيه، أمسك بها، أنزلها إلى الأرض قائلا «اعتبريها هدية مني».

تعددت اللقاءات، زادت المحادثات، كانت تسأل نفسها بين حين وآخر «ماذا يريد مني؟! ما نهاية هذا الطريق؟!». جاء عيد ميلادها، أصر أن يحتفل به معها، أن تكون لكل منهما ليلة لا تنسى، أحضر قالبا كبيرا من الحلوى، غرس فيه ثلاث شمعات، كل شمعة بعشر سنوات من عمرها كما قال لها مازحا. أدار شريط كاسيت، انسابت موسيقى كلاسيكية جميلة، طلب منها مراقصته، احتواها بين ذراعيه، أحست بلهيب أنفاسه تكوي ملامحها، اقترب منها أكثر،

همس في أذنها «أحبك . أحبك» . ردت بنبرة مستسلمة «وأنا أيضا أحبك» . توقف شريط الكاسيت عن الدوران ، قبض على كفها ، أجلسها أمامه على الأريكة ، أخذ يتأمل فتنتها بانبهار ، كانت مقاومتها قد تبخرت ، نفدت آخر قطرة منها ، اندفعت ناحيته بلا تفكير ، جثت عند قدميه ، دفنت رأسها بين ساقيه ، دس أصابعه في خصلات شعرها المتناثر ، رفعت وجهها المستكين نحوه «أتحبني حقا!!» . انحنى صوبها ، قال وهو يقبلها في عنقها «هل عندك شك في هذا!!» . «لنتزوج إذن» . بوغت من طلبها المفاجئ ، كأن قذيفة من اللهب أصابته في مقتل ، قائلا بانفعال «أنت تعرفين أنني رجل متزوج . أنا أحب زوجتي ولا أرغب في إيلامها أو جرحها» . قالت بنبرة منكسرة «لكنك اعترفت للتو بأنك تحبني» . رد بحزم «الحب شيء والزواج شيء آخر» . فلتت أعصابها منها ، سيل من الدموع انجرف من مقلتيها ، تملكتها الرغبة في نسف كل هذه الأجواء الكاذبة ، دفعته عنها ، لبست عباءتها ، خرجت دون أن تقول شيئا ، لم يعترضها أو يحاول منعها ، كانت عيناه معلقتين في الضوء المتراقص المنبعث من الشموع الثلاث ، التي ذابت ولم يتبق منها سوى أجزاء ضئيلة .

لحق التلف علاقتهما منذ تلك الليلة ، لم يتصل أيٍ منهما بالآخر ، توقفت جيوش الذكريات عن الزحف ، قررت أن تُقيم هدنة مع تفكيرها ، استعصى عليها النوم ، لم يفلح في هتك حواجز

عينيها ، اختلست نظرة إلى اللوحة المعلقة أمامها ، توهمت بأن العينين تضحكان ، الشفتين تبتسمان ، المرأة تمد رأسها من اللوحة ، تخرج لها لسانها ، تصرخ فيها «كنت بلهاء . غبية . مجرد حب في الوقت الضائع» . تتراءى لها اللوحة في وضع آخر ، الدموع تنساب من حدقتي المرأة ، ترمقها بازدراء ، وشفقة . لم تعد تحتمل هذه الأوضاع المؤلمة ، تقفز من سريرها ، تنزع اللوحة من مكانها بعنف ، تُطوّح بها ناحية الحائط بقوة ، تتمزق ، تضيع ملامحها ، تُطل عليها عينا المرأة من بين الحطام ، ناظرتين إليها في عتاب قاس ، لتحطّم ما بقي من كبريائها الجريحة .

***

# الليلة حفلة عرســـي

شيء من الكآبة صاحبني هذا المساء ، ينتابني هذا الإحساس من حين لآخر ، داهمتني رغبة ملحة في النوم مبكرا ، حشرتُ بدني تحت الغطاء ، ما إن أغمضت جفنيَّ حتى شقّ رنين الهاتف حاجز الصمت المطبق حولي ، تجاهلته ، تكاسلت عن القيام ، توقف عن الرنين ثم عاد ثانية بإلحاح ، أيقنتُ بأن لا بد من الإجابة ، تأففت قائلة «يبدو أن المتصل عنيد المراس» . أزحتُ الغطاء عني ، اتجهت ناحية الصالة ، رفعت سماعة الهاتف ، اخترق سمعي صوت صديقتي منال قائلة بنبرة هلعة «هل تعرفين أن حفل زواج عبد الله الليلة ، بقاعة الفردوس ؟!» .

لم أعلّقْ ، أغلقتُ الخط ، انتشلتُ عباءتي من المشجب ، ارتديتها فوق ثوب نومي ، في لحظات كنت في الشارع ، دخلت مهرولة إلى قاعة حفل الزفاف ، وقفت أمام اليافطة التي كان منقوشا عليها اسم

العريس والعروس ، شعرت بالأرض تميد بي ، دقات قلبي تلاحقت ، تمنيت أن تخطىء توجساتي ، أن يكون تشابهًا في الألقاب ، الحقيقة سطعت أمامي ، وجدته جالسًا في «الكوشة» وبجواره عروسته ، تسمّرت عيناي عليه ، جسدي سرت فيه رجفة باردة ، رصاصة من الألم اخترقت جدار فؤادي ، جعلتني أترنح في مكاني ، تحاملت على نفسي ، انتقل بصري إليها . جميلة . لا . ليست أجمل مني . إنه يلتهمها بعينيه ، مازالت وجبة ساخنة ، حديثة التجربة ، أما أنا فقد أضحيت خرقة بالية ، مستهلكة . لاحقته بعينيَّ وهو يُرافقها إلى منتصف المنصة ، يُراقصها ، يحيطها بدفء ذراعيه ، يُغدق عليها نظراته التي تشع شوقا ، لقد عشتُ زمنا بين هاتين الذراعين ، وغاصت مشاعري طويلاً في بحور فحولته .

أمواج الماضي أخذت تدفعني لأعماقها ، تعرّفت عليه صدفة عن طريق الهاتف ، عاود الاتصال مرات عدة ، أخبرته أن الرقم المطلوب خطأ ، لم يمل من تكرار محاولاته ، تجاوبت في نهاية الأمر معه ، كنت هشة ، ضعيفة ، خرجت لتوي من تجربة زواج فاشلة ، دون أبناء ، وحياة فارغة ، وتعطّش للعواطف ، صدّقت كلامه المعسول ، وأن غرضه الاقتران بي ، تعلّقت به ، أصحو وأنام على أنغام صوته ، بدأ يلح في مقابلتي ، إنه راغب في رؤيتي ، مقسمًا أغلظ الإيمان بالمحافظة علي ، وأنه لن يُفكر ولو لحظة في خدش كرامتي .

اختار بيته مكانًا للقائنا ، لم أعترض ، علل ذلك بخوفه على

سمعتي ، كنتُ قد وثقت به ثقة عمياء ، صدّقت تبريراته ، ما إن أصبحت بالداخل حتى شعرت بالحرج ، أبديت رغبتي في الخروج ، اعترضني ، صوّب أسهم نظراته الشبقة إلى أعماقي ، جذبني نحوه ، لم أقاومه ، شعرت بحرارة شهوته تلتحم برغبتي المكبوتة ، شجعه انقيادي في التمادي أكثر ، حلّ إزاري ، أنامله عبثت بحرية في مكامن شهوتي ، أشعل فتيل أنوثتي ، في لحظة مباغتة من عمر الزمن وقع المحظور . بعد أن تحرر جسدانا من مارد الشهوة ، نظرت إلى هيئتي المبعثرة ، خجلتُ من عريي ، لملمتُ ثيابي ، انفرطتُ في البكاء ، ضمني قائلاً بنبرة حانية «سامحيني . .كنت في شوق كبير لك» . حاول طمأنتي بكلمات كثيرة . سألته باستعطاف «متى ستحضر لخطبتي؟؟» . أرخى جفنيه ، عاد فرفعهما قائلاً «أنت زوجتي أمام الله ، فقط امهليني بعض الوقت لأنتهي من مشاكلي التي أعاني منها في عملي . كل شيء سينتهي حسب ما ترغبين» .

دقات الطبول تعالت ، جذبتني من أوجاع ذكرياتي ، نظرت ناحيتهما ، كان يمد يده إليها ، ينقل خاتم الزواج لبنصر يدها اليسرى ، يُقبلها في جبينها ، تتعالى الزغاريد ، يتجهان ناحية قالب الحلوى الكبير ، ذي الطوابق المتعددة ، الدموع انسابت غزيرة من عينيّ ، مسحتها بوشاحي . الغادر . الكاذب . إنه يقف على بعد خطوات مني ، يزف لأخرى من قطيع النساء ، يقطع بالسكين القالب ، كما قطع بسهولة عهدي ، ليتني أملك الشجاعة لغرس تلك السكين في

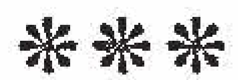
أحشائه ، كما أغمد خنجره في سويداء قلبي .

أصوات الدفوف صدحت في جنبات القاعة ، المدعوات تهاتفن لمباركة العروسين ، يرفع ذراعه ، يضع قطعة من الحلوى في فم عروسه ، تمامًا كما سكب سم وعوده في عقلي . تتمايل العروس دلالاً ، كما تمايلت يوما مع معسول كلامه ، تُغدق عليه نظراتها الولهة ، مسكينة لا تدري أنها تزوجت بأكبر الأوغاد ، لا أنا المسكينة ، هي شاة مشروعة ، حلال عليه أكلها ، أما أنا فقد كنت لحمًا محرمًا تذوّقه بمباركة مني .

اخترق مع عروسته صفوف المدعوات ، انحنى بسعادة يرفع لعروسه ذيل وشاحها الأبيض ، لا شعوريًا وجدتُ نفسي أعترض طريقه ، تقابلت عيوننا في صمت ، وقف لحظة مشدوهًا نحوي ، فاغرا فاه ، نظراته ممزوجة بالصدمة والجزع ، ونظراتي زاخمة بالخزي والعار . تمالك نفسه ، أدار رأسه عني ، أعطاني ظهره ، زاد من اتساع خطواته ، كأنه يريد الهرب من أدلة خديعته . تعليقات النسوة اختلطت بضحكات الصبايا المندفعات بخفة ومرح تجاه المنصة ، شعرت بكأس من الغيرة تُراق في أمعائي ، نار من الصهد تكوي أحشائي ، طبول جنائزية تطن في رأسي ، أطياف مبهمة تخرج لي ألسنتها هازئة من طيشي ، قهقهات مجهولة تستفز أعصابي ، فقدت السيطرة على حواسي ، هرعت في اتجاههما ، بحركة مباغتة شددت طرحة العروس ، ثبّتها على رأسي ، وسط نظرات المدعوات التي أخذت

تُحدجني باستغراب . صرخات العروس أطربتني ، بكاؤها أسكرني ، خدّر غضبي ، أخذتُ أقهقه عاليا آمرة المغنية بصوت مفعم بالأنين «زفوني . الليلة حفلة عرسي» .

أحسستُ بكف ناعمة تُربّت على كتفي ، تنتشلني من أحلام يقظتي ، رفعتُ رأسي ، كانت منال صديقتي «كنت متأكدة أنك ستأتين هنا . . هلمي بنا» تلفّتُ حولي ، القاعة فرغت من المدعوات ، المسرح صامت كالقبر ، كنتُ قد حشرتُ جسدي في إحدى الزوايا ، أراقب الفصل الأخير من مسرحية الغدر التي كنتُ بطلتها ، قمت متثاقلة ، شعرت بالراحة مع أول نسمة تستقبلني ، تُدغدغ وجهي ، تقول لي بلغتها الجميلة إنني أشهد مولد فجر جديد .



# حكايــة.. قارصة البرودة

نظرَ إلى الجسد المسجى أمامه بعينين جزعتين ، ينطُّ منهما الهلع ، لم يعد جسدها الغض يُثير غريزته ، كانت مستلقية بلا حراك ، مد يده ، أمسك برسغها ، نبض شرايينها ساكن ، ألصق أذنه عند موضع قلبها ، ألفاه صامتًا ، معلنًا الموت ، أمسك رأسه بين كفيه ، جلس القرفصاء مذهولاً ، سائلاً نفسه في جزع «يا إلهي .كيف حصل ما حصل؟! ما السبيل للتخلّص من هذه الورطة؟!» .

ذاكرته هزته ، ألقت به إلى الوراء ، اختارته الشركة التي يعمل بها للسفر إلى مدينة ماربيا بإسبانيا ، لإنجاز بعض الأعمال المتعلقة بها ، الفرحة لم تسعه يومها ، كان به شوق لرؤية هذه المدينة ، أصدقاؤه وصفوا له روعتها ، ميناءها المطل على البحر الأبيض المتوسط ، مطاعمها ، ملاهيها ، اليخوت الرائعة الراسية قرب شواطئها ، والمملوكة لأغنى رجال العالم ، حكوا له عن النساء

الإسبانيات ، جمالهن العربي الممزوج بالملامح الأوروبية .

تساؤلات زوجته القلقة تطن في أذنيه «لماذا تلهفك على هذه الرحلة؟؟ كنتَ دومًا تعتذر عن مثل هذه الانتدابات؟؟» . حاول إقناعها بطريقة ملتوية ، أن رفضه للذهاب هذه المرة ، سيسبب له حرجًا في عمله ، ومع رؤسائه ، وغالبا سيؤدي رفضه لها إلى تأخير ترقيته ، كما إن رحلته تقع ضمن إطار تخصصه الوظيفي .

يتوقف قطار ذكرياته عند محطة حاضره ، نظر ناحية الجثة الملقاة أمامه ، ود لو يستطيع التفريج عن ورطته بالبكاء أو الصراخ ، ظل ساكنا في مكانه ، يُحيط به سياج الحيرة «كيف أتصرف؟! هل أنتظر الهزيع الأخير من الليل ، وألقي بجثتها في أحد الشوارع الجانبية؟! أم ألملم أغراضي وأهرب من الشقة؟!» . أدرك بعد تفكير عميق أن التخلص من الجثة أمر صعب ، لأن الشقة تقع في قلب الميناء المكتظ دومًا بسيّاحه ، ومطاعمه ، وحوانيته ، والمألوف أن الصخب هنا لا يهدأ إلا مع بزوغ خيوط الفجر الأولى . الحل الآخر استبعده أيضًا ، رأى أنه حل غبي ، لأن جميع بياناته الخاصة مسجلة بمكتب تأجير الشقق ، وسيبلغون الشرطة التي ستبرق بدورها لسفارة بلاده .

الوقت يمر بطيئًا ، اختلس النظر إلى الجسد المسجى أمامه ، شعر بالاختناق ، فتح النافذة ، ترامت إلى سمعه أصوات الناس مختلطة بلغات شتى ، ما بين ضاحك وصامت ، بين متحدث ومستمع . بعض اليخوت أطلقت أبواقها ، متمايلة بدلال مع ضربات الموج ،

كالراقصات الإسبانيات في عروض الفلامنكو . موسيقى صاخبة منبعثة من المرقص القريب منه ، مد بصره ، لاحظ وجود مراهقين ومراهقات من مختلف الأعمار في أوضاع مثيرة ، بدوا في الظلمة كأشباح متلاصقة ، لا تتضح ملامحها .

تابع كل هذا بعينيه ، وذهنه مشغول بالمصيبة التي وقع فيها ، رنة ماجنة لامرأة على الرصيف لفتت انتباهه ، ترنيمة ضحكتها توحي بأنوثة صارخة ، تُذكره بالمرأة الطريحة على أرضية الغرفة ، ومتى رآها لأول مرة .

كان هذا بالأمس ، وقف في مثل هذا الوقت عند النافذة ، ليستمتع بمشاهدة المناظر الخلابة الممتدة أمامه ، جذبته نغمة ضحكتها ، ابتسم لها ، بادلته الابتسامة ، غمز لها بعينيه مشيرا إليها بالصعود ، في دقائق غدت أمامه ، بالغة الحسن بلا شك ، مظهرها يدل على أنها في أوائل عقدها الثالث ، جسدها متناسق ، كأنه قضيب من الخيزران ، بشرتها سمراء خمرية ، شعرها أسود غجري ، لها عينان واسعتان بأهداب طويلة ، باختصار كانت امرأة أسبانية ، بسمات عربية . جراءتها كانت متناهية ، جذبته إلى جانبها دون حياء ، بدأت بمغازلته بكلمات إنجليزية ركيكة ، في حركة شبه آلية ، تجردت من ملابسها ، ألقت بنفسها على السرير ، أخذت تتلوى كأفعى آسيوية ، كان عالمًا مثيرًا بالغ الغموض بالنسبة له ، بعد رحلة زواج مملة ، لا جديد فيها . كان ينهل بشبق محموم ، استغرق وقتا ليس بالقصير ، شعر بتخمة الانتشاء ، قامت من جانبه مبدية رغبتها في الذهاب إلى دورة المياه ، أدار مؤشر الراديو

الموضوع بجانبه ، مُتشوق لسماع أغانٍ عربية ، اخترقت ذبذبات الراديو نبرات أم كلثوم ، ثبّت إصبعه على الموجة ، وضح الصوت ، صدحت بأغنيتها «إنتَ عمري . هاتْ عينيك تسرح في دُنيتهم عنيً . قد إيه من عمري قبلك راح .» . راح يدندن معها مغتبطًا ، أفاق من ثمالته على صوت صرخة حادة وارتطام شيء بالأرض ، قفز من مكانه ، وجدها أمامه عارية ، مكومة على أرضيّة الحمام ، حاول تذكّر اسمها ، مناداتها ، لم يفلح ، الارتباك شلّ طاقة تفكيره .

توقفت ذاكرته عند هذا الحد المخيف ، أقفل النافذة ، شعر بمارد الكآبة يجثم على صدره ، تذكّر زوجته ، ملامحها المسالمة ، وكيف ستتحول إلى مخلوق عدواني عندما تصلها تفاصيل حكايته المشينة ، تذكّر أبناءه «كيف سيواجههم؟! كيف سيؤمنون بعد اليوم ، بقيم الوفاء والإخلاص؟!» . كل هذه الهواجس تصارعت في داخله ، لام نفسه على تهورها ، اندفاعها ، طيشها ، انسياقه الجنوني خلف رغباته ، الأفكار توالدت في باله ، خطرت له فكرة تسليم نفسه ، رأى بأنها أفضل الحلول ، وليحصل ما يحصل ، ما إن اقترب من باب الخروج حتى شعر بشجاعته تخونه ، تراجع عن تنفيذها ، جلس على المقعد ، تناول سيكارة ، أخذ ينفثها بعمق ، حلقات الدخان المتناثرة في فضاء الغرفة ، تراءت له كسلسلة معقودة من الأحداث المتشابكة ، أغمض عينيه ، واستغرق في التفكير .

***

## وارتمت الحقيقة أمامـــه..

خرج من عيادة الطبيب ، دامع العينين ، شارد الفكر ، في يده مظروف كبير ، يحتوي على نتائج لتحاليل متعددة ، وصور من الأشعة ، اخترق بجسده الممرات الضيقة بين السيارات المصطفة في موقف المستشفى ، محاولاً التركيز ببصره للعثور على سيارته ، تفادى إحدى السيارات التي كادت أن تصدمه ، زعق فيه صاحبها ، انهال عليه بالشتائم ، ناعتًا إياه بالمعتوه ، لم يكلف نفسه عناء الرد على انفعالات الرجل ، تفكيره كله كان محصورا في هول المفاجأة القاسية التي لم يتوقعها يومًا ، زوجته ، شريكة حياته ، أم أولاده ، تؤكد الفحوصات إصابتها بالمرض الخبيث .

أطبق على المظروف بقوة ، عيناه ما زالتا تبحثان عن موقع سيارته ، أبواق سيارة مجهولة تخترق مسامعه ، ابتعد عن طريقها ، لاحت له سيارته ، وضع يده في جيب ثوبه باحثًا عن سلسلة المفاتيح ، أغمد

أحدها في ثقب الباب ، رمى المظروف على المقعد الجانبي للقيادة ، فقد السيطرة على رباطة جأشه ، أسند رأسه إلى المقود ، غاص في مصيبته ، طرقات متتابعة على زجاج النافذة نبهته ، وقع بصره على شرطي المرور ، ناظرًا صوبه بفضول ، سأله بنبرة هادئة «هل أنتَ بخير؟! هل أستطيع تقديم أي مساعدة؟!» . هزّ له رأسه بالنفي ، مخترقًا الموقف بسيارته ، تساءل في قرارة نفسه «هل أنا بالفعل حزين على زوجتي!! أم أنها صحوة ضمير!!» حلّ إزار ذكرياته ، تعرّت أمامه أطياف ماضيه .

***

واقعة زواجي تمثّلت أمامي ، زوجتي جميلة بلا شك ، عندما اقترنتُ بها كانت بضة البشرة ، هيفاء القد ، قبل أن تدهك جسدها الواجبات الأسرية وإنجاب الأولاد . الكل حسدني على حسن اختياري ، استمعت لنصائح الأهل والأصدقاء «اذبح قطك ليلة عرسك» . تعمّدتُ فرض رجولتي منذ الليلة الأولى ، أظهرتُ لها ضجري من تمنّعها ، لم أراع فزعها من ولوج حياة جديدة عليها ، لم أضع أي حسبان لأنوثتها البكر .

- راتبك من حقي . أنا المتصرف فيه . لا تنسي أن النقود التي تتقاضينها على حساب بيتك وأبنائك . أريد أن نبني مستقبلنا معًا . .

أبلغتها بقراري هذا مع تسلّمها أول مرتب لها بعد تعيينها في إحدى مدارس البنات الحكومية ، كسرتُ فرحتها يومها ، أبدت

امتعاضها من طلبي ، أعلنت رفضها ، هددتها بسلطتي الزوجية ، أن سماحي لها بالاستمرار في الوظيفة مقابل تنازلها عن مرتبها ، وافقت على مضض .

كثيرًا ما استعملت يدي في ضربها ، كلما اشتد الشجار بيننا ، كانت تتمرد في بعض الأوقات ، وتتوعدني بالذهاب إلى بيت أبيها ، أظهر لها عدم المبالاة ، وأن بإمكانها الخروج ، شرط أن تذهب بمفردها دون الأولاد ، مقسمًا لها بأغلظ الإيمان إنني لن أدعها تراهم أبدًا .

خنتها!! نعم مع كثيرات ، من حين لآخر أتفق مع بعض الأصدقاء ، ونسافر للخارج ، نمارس كل أنواع المتع المحرمة .

- من هذه المرأة التي تبدو بجانبك في الصورة؟

أتذكّرُ جيدًا هذه الواقعة ، لأول مره تضبطني زوجتي بالجرم المشهود ، عثرتْ على الصورة في حقيبة أسفاري ، رأيتُ ملامح زوجتي لحظتها تتقلص كالنمرة الشرسة ، التي تريد الانقضاض على فريستها ، أعترف أنني شعرت بالارتباك ، لكنني تمالكت أعصابي ، أفهمتها أنها زوجة أحد معارفي ، لم تكمل النقاش معي ، انسحبت وعيناها محتقنتان بالدموع . حين انتقلنا للسكن في منزلنا بعد الانتهاء من بنائه ، وجدتها تعُلن اعتراضها قائلة «لقد وعدتني أن تسجل اسمي في صك البيت مناصفة معك» .

«أنا وأنت واحد . . أليس كل هذا لأولادنا!»

يومها أغلقت الباب عليها ، وظلت عدة أيام معتكفة في غرفتها ،

تركتها حتى أفرغت شحنة غضبها ، وانتهت الزوبعة بسلام ، وانصياعها لقراراتي كالعادة .

هل أنا السبب في ما آلت إليه علاقتنا؟! قد أكون مخطئًا ، لكنها شريكة معي في الخطأ ، كان عليها أن تصر على مطالبها ، تتمسك بحقوقها ، تحافظ على كيانها الآدمي . ترى هل أبرر لنفسي أفعالها؟! ألم أساومها دوما على أولادها؟! ألم تكن هذه الورقة الرابحة في يدي على الدوام؟!

طلبت مني الذهاب معها إلى الطبيب ، لإصابتها بنوبات صداع مؤلمة ، داهمتها بكثرة في الآونة الأخيرة ، كررت طلبها عدة مرات ، تجاهلته ، اضطرت إلى الذهاب بمفردها ، لم أفكر في سؤالها عن نتائج الفحص ، إلى أن هاتفني الطبيب في مقر عملي ، طالبًا مني الحضور إليه ، لأمر غاية في الأهمية يخص زوجتي .

لم أصدق الطبيب حين رمى الحقيقة في وجهي ، أحسستُ أنه أيقظني من إغماءة أنانيتي ، انتشل ضميري من تربة نزواتي ، لا أعرف كيف أتصرف!! هل أصارحها بحقيقة مرضها؟! هل أخبرها بكل شيء؟! أم أدفن السر في أعماقي ، وأحاول أن أكفر عن أخطائي معها؟!

أقفل إزار ماضيه ، شده لحاضره نبرة متهالكة قائلةً «سيدي . أعطني مما أعطاك الله» . نظر صوب الصوت ، أحد الشحاذين مادًا له كفه ، الإشارة ما زالت حمراء ، سرح بذهنه لحظة وجيزة ، أضاءت

الإشارة النور الأخضر ، مد ذراعه ، وضع المظروف في كف الشحاذ ، ضغط بقدمه على دواسة الوقود ، انطلق بسرعة ، دون أن ينظر وراءه في المرآة ، مخلفًا خطًا من الهباب الأسود .

***

# المرأة الأخرى

انتـابه الأرق ، تقلّب كـثـيـرا على الفـراش ، رمى زوجـتـه بنظرة حـذرة ، أزاح ذراعـهـا البـضـة عن صـدره برفق ، انسـحب برفق من جانبـهـا ، متلمـسـا طريقـه عبـر الظلام الدامس ، مشى على أطراف قـدميـه ، خـرج إلى قـاعـة الجلوس ، أضـاء نور المصـبـاح الموضـوع على المنضـدة ، رمى نفسـه على الأريكة ، مـدد جسـده عليـهـا ، أسند رأسه على إحدى حـافتيـهـا ، ثنى ذراعه ، وضـعـهـا على عينيـه ، غـاص في بحر أفكاره ، لا يدري كم من الوقت مضى عليه ، شعر بثقل في حنايا جسده ، نعاس يثقل جفنيه ، النوم يدب في بدنه ، لـم يكـن راغبا في النوم ، كان يتطلع إلى تحصيل سكينة مع نفسه . دقت السـاعة الواحـدة بعد منتصف الليل ، ضربات من تقريع الضـمير تُنعش خموله ، تُوقظ حواسه المخدرة . «ما ذنب زوجتي؟! لا ، لا ذنب لها . القضية محصورة في الأخرى» . أخذ لا شعوريّا يعقد مقارنة بينهما ، تذكّر الأخرى ،

أنفاسها الدافئة ، أنوثتها الفياضة ، عطاءها اللامتناهي . «لكن زوجتي تعطيني كل هذا . تُرى هل للخطيئة نكهة خاصة؟! أم أن تآلف الأجساد يفقدها لذة اللهفة!! لماذا أقحمتُ الأخرى في حياتي؟! بالتأكيد ستُطالبني يوما بتصحيح هذا الوضع . لا توجد امرأة ترضى أن تظل متعة وقتية في حياة الرجل الذي تحب .» . شعر بنيران الرغبة تجتاح جسده ، تُلهب فحولته ، تُشعل فيه مواقد الشوق للأخرى . «هل يمكنني الاستغناء عنها يوما؟! أم تراها مجرد نبع جديد استهواني مذاقه ، فأعافه بعد حين!! أم أنها من الأنهار الجارية ، التي لا يشبع الرجل من الارتواء منها!!» . هكذا كان يُخاطب نفسه .

توقف في ذهنه سيل التساؤل ، بدأ يسترجع بحنين وشوق تفاصيل لقائه الأول مع المرأة الأخرى .

***

كانت لديه بعض الأعمال المتفرقة في أوروبا ، تصادف مقعدها بجوار مقعده في الطائرة المقلعة به من لندن إلى باريس .

«هل أنت مسافر لباريس فسحة أم عملا؟!» . وجهت له الحديث بابتسامة ملأت وجهها .

« عندي بعض الأعمال التي سيستغرق مني إنجازها بعض الوقت» .

ردت بعفوية «أنا أعمل صحافية بإحدى الصحف الجزائرية الناطقة باللغة الفرنسية . أحيانا يتطلب الأمر السفر إلى إحدى الدول

الأوروبية ، لإجراء بعض التحقيقات أو عمل تغطيات» .

«أنتِ جزائرية إذن»!!

«أنا من أب جزائري وأم فرنسية . اسمي جميلة . أصر والدي على تسميتي بهذا الاسم إعجابا بالمناضلة جميلة بوحريد» .

« متزوجة !!»

«كنتُ متزوجة . لكن لأسباب خاصة لم يستمر زواجي طويلا» .

انقطعت فجأة عن الكلام كأن سؤاله حرّك آلامها ، أثار زوبعة ذكرياتها . ضغطت على زر المقعد ، أعادت مقعدها إلى الخلف ، أغمضت عينيها ، محاولة النوم . بساطتها في الحديث ، تلقائيتها في الكلام ، ابتسامتها الساحرة ، جمالها الهادئ ، جميعها شدته إليها . لم يدخل في تجارب نسائية منذ تزوج ، حياته كلها كرّسها لعمله وأسرته ، الجميع كان يشهد له بالاستقامة .

لا يدري كيف حرّكتْ هذه المرأة أحاسيسه!! شيء مبهم يجذبه إليها ، يجعله حريصا على معرفة هويتها ، كل شيء عنها . «لماذا هذه المرأة بالذات؟! كثيرات حاولن اصطيادي لم ينجحن . لم تُحرّك واحدة نبضات فؤادي ، بل إنني لم أشعر بشهوة تجاه أيٍّ منهن . ما السر الكامن في هذه المرأة» . كان يُحاور نفسه وهو يتأمل ملامحها المستغرقة في النوم بجواره ، وأنفاسها تعلو وتهبط .

سحبه فكره نحو الأمس القريب ، كان الفضول يدفعه لسؤال أصحابه «لماذا يُقحم الرجل نساء أخريات في حياته؟!» . تأتيه ردود

متباينة ، منهم من يقول «الحياة الزوجية يقتلها الروتين ، وقليل من التجديد والتغيير ، يجعل الحياة أكثر بهجة ورونقا» . وهناك من يُعلّق على هذا الرأي باستهجان ، قائلا «لماذا لا أتزوج بأخرى تُقاسم الأولى ملكيتي؟!» وهناك من يضحك هازئا قائلا «يكفيني أنني مُكبّل بقيود زوجية صارمة . ليس هناك أجمل من أن يعيش المرء طليقا كالطير ، يتنقل بين الأغصان ، يُمتّع ناظريه بألوان الأزهار المتباينة اللون والطعم!!» .

أعلنت المضيفة عن قرب هبوط الطائرة بمطار شارل ديجول ، ربط الجميع أحزمتهم ، داهمه شعور بالغم لم يدر سببه «أهو مهموم لفراق هذه المرأة الجالسة بجواره؟!» . سخر من سطحية تفكيره ، شبهه بمشاعر مراهق ما زالت عواطفه تتفتح ، تتلمس طريقها نحو النضوج . عاد يختلس النظر إلى المرأة بطرف عينه ، كانت منشغلة بالنظر من نافذة الطائرة . سألها «يبدو أنك من محبي باريس!!» .

أجابت بفرح «نعم . إنها بلدي الثاني . لا تنسَ أن أمي فرنسية» .

« هل يقيم والداك في الجزائر أم هنا في باريس؟!» .

ابتسمت وقد ارتسمت على محياها تعابير متأسية «لقد تزوج أبي بأمي بعد قصة حب عاصفة ، لكن . .» . توقفت عن الكلام ، أضاءت أرضية عينيها طبقة رقيقة من الدموع ، أشاحت بوجهها نحو النافذة ، ألصقت وجهها بزجاج النافذة .

دفعه الفضول لحثها على متابعة الحديث ، قال بلهجة مرحة «لكن ماذا . لم تكملي لي الحكاية؟!» .

أدارت وجهها ناحيته ، التقت نظراتها بنظراته قائلة «لكن الأوضاع المحزنة التي تمر بها بلادنا ، جعلت والدتي تصر على الرحيل . رفض والدي مرافقتها . آثر البقاء في وطنه ، وتمسكتُ أنا أيضا بخيار المكوث معه . من حين لآخر بحكم عملي الصحفي أغتنم الفرصة لزيارة والدتي وقضاء بعض الوقت معها» .

«ألا تعتقدين بأن الحب قادر على تجاوز محطات الغضب والخلافات في حياتنا؟!»

«أحيانا كثيرة يُدمّر الخوف أحاسيسنا الجميلة . فقدان الأمان من أكبر العوامل التي تسلب الإنسان توازنه» .

انبتر حديثهما بنزول الطائرة على مدرّج المطار ، أنهيا معا إجراءات الجوازات ، ساعدها على حمل حقيبتها ، عند بوابة الخروج تعمّد إخبارها باسم الفندق الذي سيقيم فيه ، ابتسمت ، لاحت منها نظرة على دبلته الذهبية المغروسة ببنصر يده اليسرى ، تنبه إلى نظرتها ، قال لها في تردد «هل يمكنني رؤيتك؟!» . «سأحادثكَ في المساء» ، أجابته وهي تهرول نحو التاكسي الذي استوقفته ليقلها .

كان مبهورا بثقافتها ، سعيدا بصحبتها ، مرات كثيرة كان رآها تغرق في بحر الشرود ، يهزها ، ينبهها لوجوده ، محاولا التخفيف عنها ، إضحاكها ، انتشالها من بئر أحزانها . في واحدة من مرات

صمتها ، سألها «أين ذهبتِ؟!» . «إلى الجزائر . إلى أهلي . إلى أبي . ألا تُشاهد الأخبار في التلفاز ، العشرات يُقتلون يوميًا في قضايا ليس لهم ضلع فيها» .

« الفلسطينيون أيضا يعيشون في تشتت وضياع . أنتم معاناتكم من الداخل ، أما هم فما زالوا يتجرعون مرارة العدوان والسلب لأراضيهم وممتلكاتهم ، بجانب الصراعات والخلافات التي بدأت تنخر في قياداتهم» .

تنهدت تنهيدة كبيرة ، دفنت وجهها في صدره قائلة «كم أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس ، الذي نتجرعه يوميا في عالمنا العربي» .

الأيام مضت سريعة ، وقفت لوداعه في المطار ، شبكت أصابع يديها بيديه ، تعلّقت نظراتها به ، ترقرقت عيناها بالدموع ، شعر برغبة جارفة في ضمها ، قالت له بأسى «هل ستذكرني ، أم سأكون عابرة طريق؟!» .

لم يجبها ، دفعها إليه بكل عنفوان مشاعره ، احتواها بين ذراعيه ، لم يبال بنظرات الناس حولهما ، قال لها منفعلا «أقسم لك بأنّي لن أنساك . سأهاتفك . وسيكون لنا لقاء» . انفرط تماسكها ، بكت ، «ليتني لم أعرفك . أحيانا واقعة في حياتنا تزيد من حجم مآسينا . قبلك كانت قضية بلادي تشغل فكري ، واليوم صار وجودك يحتل جزءا كبيرا من هذا الفكر» .

***

تساءل وهو سابح بجسده في الأريكة «هل تُغيّر تجاربنا من طبيعة شخصيتنا؟! هل أعترف لزوجتي بكل ما جرى بيني وبين المرأة الأخرى؟! هل أخبرها أن الأخرى أصبح لها مكانة في قلبي وأنني قررت الارتباط بها؟! وإذا رفضت مشاركة الأخرى لها ، ماذا سيكون موقفي من كل منهما؟! لا ، لا بد من تصحيح هذا الوضع . لكنني لم أعرف جميلة بما فيه الكفاية . ما هذا الهراء . الحب لا يعرف توقيتا» .

الساعة دقت الثالثة بعد منتصف الليل ، دقاتها أوقفت كل فصول روايته عن الاستمرار ، أقفل زر المصباح ، عاود التخبّط في خضم تساؤلاته ، كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس ، لم يعد يسمع سوى أنّات نكده داخل جنبات نفسه ، أحس بيد دافئة تُربّت على كتفه ، انتفض مذعورا ، جاء صوتها دافئا ، يهمس بالقول «هذا أنا لا تجزع . انتابني القلق عليك حين لم أجدك بجانبي» . أعاد تشغيل ضوء المصباح ، تفحّص بعينيه معالم زوجته ، في ملاحة وجهها ، نزل ببصره إلى منحدر الوادي العميق الفاصل بين نهديها النافرين ، أدار بؤبؤي عينيه في تناسق قوامها الظاهر من تحت منامتها الشفافة ، مارد الشهوة ما زال مستيقظا في بدنه ، دفن رغباته في أحضانها المتعطشة لفحولته ، وأنفاس المرأة الأخرى تُزكم أنفه .

***

مضى أسبوعان وهو يحاول الاتصال بجميلة في مكتب الصحيفة بلندن وباريس ، في بيت والدتها ، كان الجواب دوما لم تحضر . أرسل

تلكسًا إلى مكتبها بالجزائر، بعدها بأيام فوجىء بظروف يحمل طابع الجزائر، طائر من الفرحة أخذ يُغرّد في أعماقه، فتح المظروف بلهفة، كلمات قصيرة مقتضبة باغتته «جميلة قُتلت الأسبوع الماضي في حادث سيارة ملغومة، قرب مقر الجريدة التي تعمل بها في الجزائر». اختلّ توازنه، صرخة ألم دوت في جنبات نفسه، كوت وجدانه، كوّر الورقة بين أصابعه، متخيّلا قطرات من الدم الأحمر تنسكب منها.

***

# نســاء عند خط الاستواء

كانت الشرفة في الطابق الأرضي تُطل على حديقة واسعة ، زاخرة بأشجار الياسمين والفل والريحان ، وفي الركن الشمالي من الحديقة نُصبت تكعيبة كبيرة ، غطيت أعمدتها الخشبية بخميلة العنب ، وتحت التكعيبة وضعت طاولة دائرية ، رُصت حولها مقاعد وثيرة ، لاستقبال الضيفات .

اتفقت الصديقات الأربع على الاجتماع في بيت صديقتهن فاطمة ، حضرن وقت الغسق بأثواب قطنية ، فضفاضة ، تتناسب مع قيظ الصيف ، ورطوبته ، وقد ارتسمت على وجوههن ملامح الرتابة والملل .

في محاولة لكسر حدة الجو القاتم قالت فاطمة «أتدرون ما الشيء الذي تتلاقى عنده صحبتنا؟؟»

قالت عبلة : «بالتأكيد أفكارنا الجنونية ، التي لا يقرها مجتمعنا

المحافظ» .

علّقت عبلة «ولماذا لا تقولين الفراغ الموحش الذي يجثم على حياتنا ، وحياة الكثيرات من مثيلاتنا؟! لقد أصبحت معظم الروابط الأسرية صورية . الكل يعيش في برج عاجي صنعه لنفسه . إننا نحيا وسط مجتمع مكبّل بعادات وتقاليد موروثة ، أدت إلى إصابته بوباء الغليان الداخلي!!» .

أضافت نهى «ربما لانشغال أزواجنا عنّا . الرجال أضحوا لاهين عن زوجاتهم بصفقاتهم التجارية ، والنساء اتجهن للبحث بنهم عن منافذ تسدُّ غيابهم» .

ابتسمت ليلى قائلة «لا ، بل يجمع بيننا تطلعاتنا الثورية . حلم العيش في مجتمع تسوده روح الديموقراطية» .

قالت فاطمة بنبرة جريئة «ما رأيكن في فكرة تبدد هذا الضباب الكئيب . تكتب كل واحدة على ورقة مستقلة أمنيتها حول المستقبل على ورقة ، ثم نتناقش سويًا فيها . لنبدأ بعبلة . .» .

قالت عبلة «أتمنى أن أقود مركبة فضائية ، أجوب بها العالم ، أرى الناس من فوق السحاب ، لا يعترضني شرطي مرور ، ولا لوائح تمنعني من القيادة ، ولا نظم رجعية تعرقل طريقي . أحلم بحياة بسيطة دون تعقيدات ، ولا حواجز ، ولا حدود ، أريد أن تكون كل الأوطان العربية أوطاني» .

قالت فاطمة ضاحكة «كم أنت خيالية . مطلبك هذا لن يكون له

وجود يومًا في عالمنا العربي ، لأن الجميع متهيبون بعضهم من بعض ، معدومة الثقة بينهم ، رغم هذا سنحترم أمنيتك ، ونحفظها في ملف المطالب» .

قالت فادية «أتدرين ما هي أمنيتي؟! أن نؤسس جمعية لحماية حقوقنا ، اتحاد نسائي نناقش من منبره مطالبنا ، ونداقع من خلاله عن كياننا» .

قاطعتها فاطمة : «عن أي حقوق تتحدثين؟؟»

تابعت فادية : «السعي إلى إبراز مكانة المرأة ، ودورها وقيمتها الحقيقية في مجتمعنا . في إفساح المجال أمامها لتولي مناصب ما زالت حكرا على الرجل» .

قالت نهى بنبرة فضولية «أوضحي أكثر» .

أجابت فادية «أنظرن حولكن . لقد عادت المرأة للقهقرى ، إلى عهود الجاهلية يوم كانت تُباع وتُشترى . أين نحن مما كان يجري في صدور الإسلام الأولى حيث كانت المرأة تُجادل ، بل وتُستفتى في كثير من الأمور الفقهية!! إننا في نظر الرجال ناقصات عقل ودين» .

قالت فاطمة «لقد أرفقنا ورقتك مع المطلب الأول» .

قالت نهى «أمنيتي أن يكون لمثقفاتنا منتدى أدبي ، يلتقين فيه ، ويتجادلن ، ويعرضن من خلاله نتاجهن الأدبي . .» .

اعترضتها فاطمة «لكن هنالك الكثير من المثقفات يقمن في بيوتهن أمسيات ثقافية ، يَدعين إليها من شئن ، ألا يكفي هذا؟!» .

قالت نهى بحسرة «كلها تدور في نطاق ضيق، محدود، لا يُسمن ولا يغني من جوع».

قالت فاطمة معلقة «لقد أغفلتِ دور الجمعيات الخيرية النسائية. إن لها دورًا كبيرًا في تفجير طاقات المثقفات عن طريق الندوات التي تقيمها لهن من حين لآخر».

ردت نهى بلهجة انفعال «يظل دورها هامشيًا للغاية، وذلك لعدم وجود تنظيم لهذه الندوات، وعدم الدعاية الكافية لها. أجيبيني بربك كم من المثقفات يتم إرسال بطاقات دعوة لهن للحضور، والاهتمام بمشاركتهن؟! صدقيني كلها قائمة على العلاقات الشخصية، والألقاب الرنانة، بجانب وجود فجوات عميقة بين المثقفات نتيجة للغيرة، والحقد، وإحساس الأنا الطاغي عند كل واحدة منهن بأنها «البريمو» على نظيراتها في عالم الأدب».

ابتسمت فاطمة قائلة «عمومًا لقد أضفنا اقتراحك إلى قائمة المطالب. والآن ما رأيكن لو نتوقف قليلاً لاحتساء كوب من عصير الليمون!! أعتقد أن الجميع بحاجة لإطفاء صهد هذا البركان الفكري».

وافقن جميعًا، هدوء، صمت أطبق على المكان، لم يتخلله سوى صوت الكؤوس وهي ترتطم بسطح الطاولة، انقضت برهة، أشارت بعدها فاطمة لصديقتها ليلى ببدء الحديث.

قالت ليلى «أتمنى أن يكون لنا صوت في الانتخابات».

قالت فاطمة بدهشة «عن أي انتخابات تتحدثين؟! وهل لدينا برلمان حتى تطالبي بالتصويت؟!»

قالت ليلى بحماسة «لماذا لا يكون لدينا برلمان حقيقي أسوة بالدول المتحضرة . أن تشغل المرأة مقاعد رئاسية فيه ، وتناقش في أروقته كل ما يخص قضايا وطنها» .

قالت فاطمة «كوني عاقلة ، لا تنسي أن المرأة في مجتمعنا ما زال الرجل وصيًا عليها . يمارس دور الرقيب على كل خطواتها . كما أنها لم تصل إلى مرحلة النضوج الفكري الكامل حتى تتمكن من اختراق هذا العالم المتحضر» .

قالت ليلى بحدة «إلى متى سنظل ننظر لأنفسنا بعين النقص؟؟ لقد أصبحت بيننا الدكتورة ، والمعلمة ، والفنانة ، والأديبة و . . .»

قالت فاطمة «تنقصنا نظرة المجتمع الرجالي نحونا بعين مختلفة عن رؤية الأمس الضيقة . الحد من سطوة بعض رجال الدين ، الذين يستغلون الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) ، مع أنها نزلت في توقيت ومناسبة محددين» . تعالت أصواتهن جميعًا قائلات في نفس واحد «فاطمة . لقد قلنا جميعًا مطالبنا ، ولم تخبرينا عن أمنيتك!!» .

شردت فاطمة بأفكارها بعيدًا ، خلف خيط ذكرياتها المريرة مع الصحافة ، تنهدت قائلة «أمنيتي أن تصبح لدينا صحافة حرة ، قادرة على نشر مطالبنا ، وأن تترأس مطبوعاتنا صحافيات قادرات على إيصال أفكارنا للرأي العام ، دون أن يدفنها الرجال كالعادة في أدراج

مكاتبهم» .

علّقت نهى على قولها باستخفاف «لكن حتّى المثقفين من الرجال لا حول لهم ولا قوة في عالمنا العربي ، كلهم تنهش جلودهم مخالب القمع ، والاستبداد . إن الطريق ما زال طويلاً أمام صحفنا العربية لتصبح ذات سلطة مستقلة عن دولها» .

أوقف سيل المناقشة قدوم الخادمة الآسيوية ، معلنة انتهاء تجهيز العشاء . قمن متثاقلات ، تركن أوراق المطالب على الطاولة ، نسمة خفيفة هبّت ، تطايرت أوراق أحلامهن بعيدًا ، خارج أسوار الحديقة ، داست أقدام المارة على الأمنيات المستحيلة .

**انتهـــت**

# سيرة مختصرة عن الأديبة السعودية زينب حفني

zinab_a@hotmail.com

* كاتبة وقاصة وروائية سعودية من مواليد مدينة جدة .
* تخرجت من كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز بجدة عام ١٩٩٣ .
* بدأت العمل في الصحافة عام ١٩٨٧ .
* تنقلت في عدد من الصحف السعودية المحلية . إلى جانب الكتابة في عدد من المجلات العربية .
* كتبت مقالا أسبوعيا بصفحات الرأي في صحيفة الشرق الأوسط الدولية على مدى خمس سنوات .
* تكتب حاليا مقالا أسبوعيًا بصفحات وجهات نظر بجريدة الاتحاد الإماراتية .
* مقالاتها تأخذ منحى اجتماعيًا وإنسانيًا ، تُلقي الضوء من خلالها على أهم القضايا المطروحة على الساحة العربية والدولية .
* صدرت لها عدة مجموعات قصصية ، بجانب عدة روايات ، من أهمها رواية «لم أعد أبكي» ، ورواية «ملامح» الصادرتان عن دار الساقي .
* صدر لها «إيقاعات أنثوية» عن دار «مختارات»وهو عبارة عن قصائد نثرية .
* شاركت في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٠٠ من خلال لقاء مفتوح مع الجمهور المصري حول مجمل أعمالها . وفي العام نفسه تمت استضافتها بدمشق من خلال الصالون الأدبي الذي تقيمه في بيتها

الدكتورة «جورجيت عطية» ، وتحرص من خلاله على استضافة شخصيات ثقافية متنوعة الاتجاهات .

* شاركت في ملتقى المرأة والكتابة بمدينة آسفي بالمغرب عام ٢٠٠٤ من خلال ورقة تحمل عنوان «حكايتي مع الحرف» .
* شاركت في الندوة النسوية الأولى «المرأة والإبداع والتاريخ» بمحاضرة «المرأة ودورها في صنع التاريخ» ، بجانب أمسية شعرية ، في جامعة القاضي عيّاض/بني ملال/المغرب في ابريل عام ٢٠٠٥ .
* أثارت قصصها ورواياتها الكثير من اللغط عند نشرها لجرأة طرحها ومضامينها .
* هذا إلى جانب العديد من حفلات التوقيع لكتبها ، وإجراء الحوارات الصحافية في العديد من الصحف المحلية والعربية . إضافة إلى المقابلات التليفزيونية ، حيث تمّ استضافتها في القنوات الرسمية المصرية واللبنانية والسورية ، إلى جانب عدد من القنوات الفضائية العربية .

zinab_a@hotmail.com